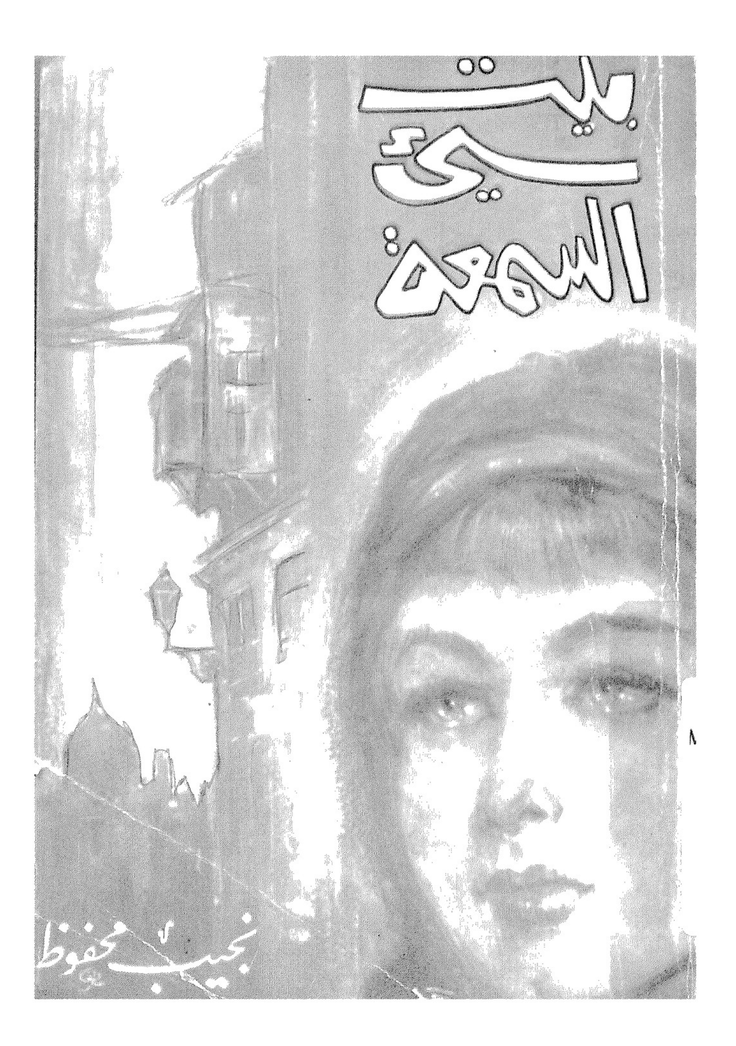

بيت
سيئ
السمعة
نجيب محفوظ

مطبوعات مكتبة مصر

بين القصرين

تأليف

نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

قبيل الرحيل

لم تبق الا أيام معـــدودة قبيـــل الرحيل · لذلك بدت الاسكندرية لطيفة جذابة كما ينبغى لها قبيل الرحيل · وهو لا يدرى متى يراها مرة أخرى اذ أنه يمضى عطلته عادة عند الأهل فى الريف ولذلك فالذى كان موطنا للوحشة والملل انقلب مبعثا للحنان والأشواق فى نظرة الوداع · حتى مجلسه المعتاد منذ أربع سنوات بقهوة سيدى جابر تجدد للتو شبابه · وقال لنفسه وهو يدخن النارجيلة هيهـات أن يجد جوا منـاسبا لترطيب التبغ كجو الاسكندرية ، أما النادل الذى جاء بالقهوة فقد قال بأسف :

ـ ستوحشنا كثيرا يا بيه ··

فابتسم اليه شاكرا ، وعند ذاك دخلت امرأة · هى ·· هى · التى تتردد على القهوة من شـهر لآخر ، التى أطلق عليها امرأة سيدى جابر ، التى تجاهلها طوال أربعة أعوام . وكانت اختفت منذ أواخر الصيف · ها هى فى فستان شتوى، مطوقة الوجه باشارب وردى ، متلفعة بشال مرصع بالترتر ، ملابس توافق الخريف الزاحف وتلك السحب البيضـاء التى أخفت قرص الشمس وطرحت لونها الهـادىء الغامض على الشوارع شبه المقفرة · وجلست الى جانب الرومى صـاحب القهوة ، وتبادلا كالعادة قليلا من الكلام وكثيرا من الصمت ، يغشاهما جو حاد كأنهما رجلان ، ومن رجال الأعمـال على الأرجح · وذاك كان شأنهما من زمان · ومرة همس النادل فى أذنه :

ـ أليست جميلة ؟ ··

رأى عـينين واسـعتين مقتحمتين ، ووجنتين ريانتين ، واغراء فى هالة من الثقة بالنفس والحنكة ، فقال وقتذاك دون تردد :

ـ ليس الطراز الذى يوافقنى ٠٠ !

اليـوم تبدو مغرية فحسب كالاسكندرية قبيل الرحيـل ٠ وقال للنادل :

ـ أربعـة أعوام عشتها فى الاسكندرية ومع ذلك فلم أزر ـ ولو مرة واحدة ـ لا حديقة الحيـوان ولا أنطونيادس ولا الآثار الاغريقية الرومانية ولا هذه المرأة ٠٠

فابتسم النادل قائلا :

ـ وأسيوط لن تجد فيها شيئا ٠ ٠

وبعث الى المرأة بنظـرة بدائية ولم يكن فى القهـوة الا منهمكان فى النرد فأجابته بعمق ٠ فقال للنادل :

ـ أرنى شطارتك ٠٠

انتقلت الى جانبه ، ثم تبعها النادل بزجاجة بيرة ٠ وراح يؤكد لها أن تعارفهما فرصة سعيدة حقا فقالت بدلال بارد :

ـ أنت كشجرة المانجو ؟

فرفع حاجبيه مستفهما فقالت :

ـ تحتاج الى خدمة طويلة وصبر !

فهرب من الاعتـــذار برفع قدحه هامسـا « صحتك » ٠ وقضما الزيتون الأخضر وهما يترامقان فى صمت حتى قال :

ـ البيت على بعد دقائق !

فقالت بلا تلعثم :

ـ جنيهان ! ٠٠٠ والآن من فضلك ٠٠

ودستهما فى حقيبتها وهما يغادران القهوة ٠ وأثنت على الشقة الصغيرة المهندمة فأثنى بدوره على البواب صـاحب الفضل ٠ وجاء بطبق فاكهة ووضعه على خوان على كثب من

الفراش . وسرعان ما تعانقا دون ما كلمة واحدة . وامتلأ الصمت بتعابير غامضة وهمسات من عالم آخر . واستحكم ظلام المغيب فى جو الحجرة المغلق . وارتجت مصاريع النوافذ بريح مباغتة كما يقع كثيرا فى الخريف . وما لبث لحن المطر أن عزف فوق الجدران . ورفع الى النافذة القريبة نظرة محمومة ثم همس مستسلما :

ـ جو متقلب لا أمان له .

ولكنه استمتع بدفء وراحة عميقة . وانتبه الى الظلمة الشديدة فمد يده الى الأباجورة فأضاء مصباحها . ولحن المطر ما زال يعزف ولكنه خف جدا موحيا بالختام . ونظر اليها فرآها مغمضة العينين كالنائمة . وهاله منظر جفنها الكبير كورقة وردة . ولاحت منه نظرة الى المرآة البيضاوية فرأى صورة لشخصه تستحق الرثاء . وكف المطر عن العزف تماما . وسألها :

ـ نائمة ؟

فأجابت دون أن تفتح عينيها :

ـ لا أنام قبل الفجر ...

وقشر موزة ورشقها برفق بين شفتيها الغليظتين فجلست نصف جلسة وتسليا معا بالفاكهة . وقالت :

ـ قال الخواجا انك مسافر بعد غد ... ولكن ما اسمك ؟

وتذكر وهو يدارى ابتسامة أنهما بدءا بالعناق قبل التعارف . قال ان اسمه بركات ، موظف منقول الى أسيوط ، فقالت وهى تمسح ظاهر يدها بباطن قشرة الموز :

ـ اسمى دنيا ..

فقال لنفسه : اسم غريب وجميل ولكنه بلا شك زائف ككل شىء فى الجلسة ، وشعر بالملل يسترده من الحلم حتى حسد المنهمكين فى القهوة . وقصت عن الماضى والمصير قصة فقال



انتقلت الى جانبه ، ثم تبعها النادل بزجاجة بيرة ٠
وراح يؤكد لهـا أن تعارفهما فرصـة سـعيدة ٠٠

لنفسه : « قصة واحدة ·· لا جديد ألبتة ! » · وسـألته عن شقته وأثاثها فأجاب :

ـ بعتها بكل ما فيها ··· وبعد غد سيحل بها آخر ··

لم يعد بالحجرة الا عبير الموز والفتور · ولولا الجنيهان لتقوض المجلس · وفى ذروة من ضيقه رآها وهى تمد ذراعها الى حقيبتها فـوق الكنبـة ، ثم رآها وهى تستخرج منهـا الجنيهين · لحظها بطرف متسائل فاذا بها تميل نحو الناحية الأخرى من الفـراش لتودع الورقتين فى درج التـواليت · ونظرت اليه وهى تبتسم فتلقى نظرتها بعين لم تفهم شيئا ، وسألها :

ـ لم ؟

فقالت وهى تسبل جفنيها :

ـ نقودك ردت اليك ··

استيقظ من الفتور ولكنه لم يفهم شيئا فقالت بدلال :

ـ أنت فاهم ولكنك تتغابى ، هذا كل ما فى الأمر !

وأقسم لها أنه لا يتغابى أبدا فقالت :

ـ لا لزوم للنقود فى هذه الحال ··

ـ أية حال ؟

فطوقت عنقه بذراعها السمراء وهو يضطرب من الانفعال وهمست فى أذنه :

ـ الرضى ! ·· فهكذا أفعل اذا رضيت نفسى ··

وغرق فى نشـوة فرح لم يجربها من قبـل حتى رقصت الجدران ولكنه هتف فى شىء من الحياء :

ـ لا ·· لا ··

وكتمت احتجاجه بقبلة دسمة فذاب اعتراضه فى فرحة أشمل حتى ود أن ينعم كل شىء بالافراح · واندفع يعد المكان لسهرة طويلة سعيدة فمضى الى الصالة ففتح الراديو ، ونادى

البواب فأمره باحضار شراب وشواء ، ثم رجع الى الحجرة وهو يقول :

ـ كم من مرة رأيتك فى القهوة طوال أربعة أعوام ؟ ! ٠٠ ولكننى أحمق ٠٠

ـ والرحيل ؟ !

فهز رأسه بأسف ثم تمتم :

ـ بعد غد ؟!٠٠ من يصدق هذا ؟ ! ٠٠ ولكننى أحمق ٠٠

واستلقى عند قدميها وهو يفرقع بأصابعه مع نغمة راقصة رددها الراديو ٠ واقتنع بأن الدنيا تتمتع بصحة تحسد عليها ٠ وخطرت له فكرة جديدة فوثب الى الأرض وهو يتساءل :

ـ ما رأيك فى نزهة ليلية ؟ !

ومضيا الى ملهى صغير بشارع النبى دانيال ٠ وتغلب بسهولة على حرص مأثور عنه فأنفق بسخاء ، وشربا كثيرا ، ورقصا مع كل نغمة ٠ وفى فترة استراحة لاحظ أن شابا يرمق محبوبته باهتمام فتكدر صفوه وتوثب لمواجهة أى احتمال لا يروقه ٠ وتقدم الشاب من دنيا وانحنى تحية ثم طلبها لرقصة مقبلة فنفخ بركات غاضبا حتى همست فى أذنه :

ـ هذا تقليد مألوف لا ضرر منه ٠٠

فقال بغلظة :

ـ لا أحبه ٠٠

ثم حدج الشاب بنظرة حمراء ، وقال له بخشونة :

ـ اذهب ٠٠

ولم يدر بماذا أجاب الشاب ولكنهما التحما فى عراك بسرعة مذهلة ٠ ولم يشعر بما تلقى من ضربات ولكنه أصاب خصمه فى بطنه فترنح وكاد يسقط على ظهره لولا أن تلقاه النادل بين يديه ٠ وأحدقت بهما الأعين المخمورة فى ذهول

ووجوم . وتنقل مدير المحل بين الموائد مهدئا للخواطر ثم أشار الى الأوركسترا فانطلق يعزف داعيا الى رقصة جديدة · وجعل بركات يلهث ودنيا تسوى له ربطة عنقه وقد انخلع زرار الجاكتة وتهتك الجانب الأيسر من أعلى القميص ، أما اللكمة التى أصابت صدره فلم تكن بذات بال ، ورغم ذلك فلم يستأثر به الكدر أكثر من دقائق ، وسرعان ما عاوده الانسجام ، وراح يشرب كما يحلو له · ورمقه البعض بحنق فمالت دنيا على أذنه قائلة :

ــ نذهب يا عزيزى ··

وغادرا الملهى وعشرات النظرات تصفعه بأزدراء ، ولكنه شد على ذراعها بمرح وسعادة ، وداخله احساس قوى بالزهو والفخار فقال لها :

ــ لا تغتمى يا عزيزتى ، هذه متاعب يسيرة ، وكثيرا ما تحدث ··

واستقلا ترام الرمل مع الجمهور المنصرف من السينما · ومد ذراعيه حولها كالسياج ليدفع عنها غائلة الزحام ولكن رغم ذلك ضايقها رجل عن قصد أو عن غير قصد · ورماه بنظرة وعيد ولكن الآخر كان فى واد آخر فواصل مضايقاته · وانفجر فيه غاضبا من رأس دارت به الخمر · وتبادلا كلمات غاية فى القسوة ، ثم تبادلا لطمات ولكمات بعنف قبل أن يفصل الناس بينهما · وتدخل أولاد الحلال لمنع المضاعفات · ووجد فى وجنته اليسرى ألما ، وسال الدم من زاوية شفته السفلى ، وجعل يجفف الدم بمنديله طيلة الطريق ولكن الدم الغزير الذى خضب شارب خصمه عند أسفل أنفه الملتهب خفف من شدة انفعاله · وعند مغادرة الترام لفحه هواء منعش ثمل بعبير المطر فارتفعت روحه وقال :

ــ جرحى بسيط · لكنه خسر أنفه فيما أعتقد ··

فتمتمت فى ملق :

ـ كدت تقتله الله يجازيك ··

وندت عنــه ضحكة ثم قص عليهــا نوادر من معاركه فى الزمان الأول قبل أن تشكمه الوظيفة · وكان يروى ذلك بفخار واضح ، ثم عاوده مرحه كأن شيئا لم يكن ، وهكذا رجعا الى حجرتهما · ووجد الشراب والشواء على الخوان حيث تركهما البواب فقال :

ـ جميل جدا ، ولكن ينقصنا الزهور ، كان يلزمنا باقة ورد ويا للأسف !

وغســلت له جرحه ودلكت وجنتــه وهو يغنى « ما تبطل الشقاوة وتيجى عندنا » وقالت له ضاحكة ان صوته لم يخلق للغناء فقال ان المهم هو السعادة فعند ذاك يغنى أى شىء · ثم تحدث ببلاغة رقيقة عن الحب حتى قال لها :

ـ ليس كمثله شىء ··

ثم قال أيضا بعد أن قبلها بامتنان :

ـ لا بد من الرجــوع الى الاسكندرية ، ســنلتقى كثيرا بالرغم من الرحيل ··

وعندما ســاد الصمت ارتفع زئير الهواء خارج النافذة فقهقه بركات قائلا :

ـ جو بلادك قلب ولكنه جو سعيد !

وعندما اختفى كل شىء فى الظلمة اشــتد زئير الهواء ، وأكثر من مرة نضح شيش النافذة بوميض البرق فى موجات قصيرة متتابعة كالدغدغة كشفت عن معالم الحجرة الكاسية والعارية ثم استكن الظلام كأكثف مما كان فتضــاعف حنان الشاب واستمتاعه بالدفء والأمان · ووجد نفسه يتذكر جو الساحل عندما يكفهر وتنتشر فى تضاعيفه تحركات غامضة متوترة تنذر بوشيك المطر · وما لبثت الأمطار أن انهلت فوق

النافذة فى عربدة صاخبة فقال لنفسه وهو يستزيد من متعة الأمان والهناء ان قيام الساعة نفسها يطيب فى أحضان الحب·

واستيقظ عند الضحى ·

وفتح النافذة فدخل هواء بارد وتراءت السماء ملبدة بغيوم فى لون المغيب جامدة غير موحية ·

وجلست هى على الكنبة فى تراخ مشعثة الشعر منتفخة العينين فاترة النظرة شبة عابسة كأنها لم تعرف اللعب · وخيل اليه أنها كبرت أعواما فسرعان ما شعر بالكبر وبأن كل شىء زائل · وتثاءب طويلا بصوت كالأنين ثم قالت وكان أول ما نطقت به منذ استيقاظها :

ــ هذا أوان الذهاب ·

فتساءل :

ــ لم العجلة ؟

فتمتمت :

ــ انتهت الليلة ، ولدى عمل ومواعيد !

ثم رأى حركة لم يكن يتوقعها · رآها تميل نحو التواليت ثم تفتح الدرج وتسترد الجنيهين من مكانهما ثم تعيدهما الى حقيبتها وقد تثاءبت مرة أخرى · ما معنى هذا ؟ ! ·· وسألها فى حيرة :

ــ أأنت فى حاجة الى نقود ؟ !

ــ كلا ، أخذت ما اتفقنا عليه فقط !

فتساءل فى دهشة وكآبة :

ــ أى اتفاق يا عزيزتى ؟ !

ــ الاتفاق ، نسيت ؟

فضحك ضحكة بلهاء وقال :

ــ الظاهر أنك أنت التى تنسين !

ولم تعن بالرد فقال بجزع :

ــ شيء عجيب ، النقود لا تهمني ، ولكنك قلت أمس ٠٠ ، انسيت حقا !

وقال لنفسه اما أنني مجنون واما أنها مجنونة ٠ ثم قال عابسا :

ــ ما لك ؟ ، ماذا جرى ؟ ، خبريني من فضلك ؟ !

فابتسمت ابتسامة باردة وهي تتساءل :

ــ اتريد أن تأخذ دون أن تعطي ؟

ــ قلت انك لا تأخذين عندما ترضين !

فرمقته بنظرة غريبة ثم قالت :

ــ أردت أن أهبك ليلة سعيدة ، هذا كل ما هنالك ٠٠

فسألها بصوت متهدج :

ــ مجرد حيلة من الحيل ؟ !

ــ ولكنها أسعدتك سعادة حقيقية ٠٠

فقال وغضبه يتراكم كزوبعة في الأفق :

ــ كذبة حقيرة ٠٠

ــ لا تزعل ، كانت السعادة حقيقية ، وأنا أستحق شكرك !

رماها بنظرة قاسية لم تر من وجهها الا دمامة وحشية ، وأصغى في رجفة الى حديث نفسه الثائرة التي تدعوه الى خنقها حتى يتفجر دمها الأسود فنظرت اليه بقلق وحذر فصاح بها :

ــ شيطانة حقيرة ٠

فلم تنزع بصرها منه متوثبة للدفاع عند أول حركة فصاح :

ــ وحيلة فاشلة ألا تدركين ذلك ؟ ٠٠ أود أن تدفعي حياتك ثمنا لها ٠٠

فلم تنبس وازدادت حذرا فعاد يقول :

ـ وما فائدة ذلك يا مغفلة ؟ ، لن تستطيعى أن تكرريها مرتين ٠

اطمأنت الآن الى أن موجة الجنون قد انحسرت عنه فيما بدا وأنه أخذ يسترد شيئا من هدوئه الخائب وان رانت عليه كآبة ثقيلة فقالت :

ـ لكنها حيلة لا بأس بها قبيل الرحيل ، أليس كذلك ؟

فقال بازدراء :

ـ قلت يا مغفلة انك لن تستطيعى أن تكرريها مرتين ٠٠

فتساءلت :

ـ ومن قال اننا سنلتقى مرة أخرى ؟ !

حلم نصف الليل

أم عبـــاس امرأة جميلة ، عرفت فى الحى بجمالهـا ، ويتطلع اليها أصحاب الأذواق كما يتطلع أهل الخلاء الى عين ماء ٠ وهى الى ذلك تملك عمارة قديمة من أربعة أدوار غير ثلاثة دكاكين أسفلها ولذلك اعتدها الأهالى وكلهم فقراء حلما موشى بالذهب ٠ ويوم توفى زوجها بائع المســابح والمباسم والأوراد كانت فى حوالى الأربعين ، وهى سن يعتبرها الحى ذروة النضج ومجلى البضاضـة وعطـر الأنوثة ٠ وكثيرون سعوا الى التزوج منها ، ولكن القسمة دفعت بها الى أحضان رجل لم يجر عند الظن على بال ٠ كان حسنين يملك عربة كارو ويؤجرها الى الغير ، فى الثلاثين من عمره ، قوى الجســم مرهوب الجانب ، ومعدودا من فتوات الدرجة الثالثة ٠ ولم يكن أحد فى الحى يحبــه أو يعجب به فازدادوا له مقتـــا . وعجبوا كيف تقع امرأة كأم عباس فى أحابيله ، وقالوا بأسف والغضب والحسد يأكلان قلوبهم :

ـ مسكينة أم عباس ، ومسكين عباس !

وعباس ابنها من الزوج الراحل ، فى العشرين من عمره ، طيب القلب جدا ، تلوح فى عينيه الواسعتين نظرة صامتة ، ولعلها ناطقة بلغة مجهولة ، يبتسم كالأطفال ، ويطلق شاربه ولحيته ويحبهما ٠ وهو أمى لم يحصل فى الكتاب حرفا ولذلك فتح له أبوه دكانا من دكاكين العمارة لبيع الحلوى والفـول السودانى واللب فكان يغدق على الأطفال بغير حساب ٠ ولما تزوجت أمه من حسنين غاب عن الحى أياما ثم عاد وهو يقول لكل من يلقاه :

ـ لا يصح أن يحل محل الأب رجل آخر ٠٠٠

ورفع رأسه نحو مسكن أمه وصاح بأعلى صوته :
ـ يا أم عباس ··· الله يسامحك ···
وعندما ينقضى النهار يخلع جلبابه ويلبس بدلة زرقاء فاتحة اللون فهو يحب الألوان الفاتحة ، ويمشط بعناية شاربه ولحيته ، ويغطى رأسه بطربوش متداعى الأركان ، ويتناول عصاه الخيزران البرتقالية ، ثم يغلق الدكان وينطلق فى سبيل طويل ، ملقيا بتحياته يمنة ويسرة ، يلوك فى فيه قطعة من السكر النبات ويبتسم فى سعادة رائعة ، وأكثر الليل يرى هائما على وجهه · ومذ تزوجت أمه من حسنين اتخذ من دكانه مسكنا فلم تعارضه أمه طويلا لعلمها بعناده ، وكانت لا تخشى شيئا عليه وتقول ان ملائكة الله تحرسه · وسعى حسنين يوما اليه متوددا ولكنه صاح فى وجهه :
ـ اذهب ، أنا لا أعرفك ·
فغضب الرجل قائلا :
ـ أنا عمك ··
وحال أناس بينهما وهم يلاطفون الرجل دفاعا عن الشاب المحبوب · وحزنت أم عباس حتى دمعت عيناها الجميلتان · كانت تحب عباس لأنه وحيدها ولأن وجهه صورة من وجهها · أجل كان عباس جميلا ، ولا يخفى جماله رغم اللحية والشارب والطربوش المتداعى الذى يغطى ثلث وجهه ·
ومن عجب أن حسنين ازداد بعد نعمة الزواج من أم عباس فظاظة وانحرافا · واستفحل جانب الفتوة من ذاته فاشترى الأعوان وأكثر من العدوان ، وكان يسكر حتى تلاطمه الجدران ، وكان يغنى اذا سكر بصوت تنفر منه الخنافس ، وكلما رأى عباس الرجل فى حال من أحوال عربدته خرج من دكانه الى الطريق ورفع رأسه نحو مسكن أمه وصاح بأعلى صوته :

ـ يا أم عباس ··· الله يسامحك ···

ويوما ترامت حشرجة نبراته الصارخة من وراء الشيش الى الطريق فى هياج وحشى :

ـ أنا سيد البيت ··· أنا سيد الكل ··

وتخيل الناس المرأة الجميلة تحت زوبعة الاهانات بأسف، المرأة التى لم تعرف فى ماضيها سوى الحب والتكريم · وتساءلوا عن سر ذلك الغضب · وأجاب سكان العمارة بأن الايراد هو سر الغضب ، وأن الفتوة انتصر ، وأصبح المحصل الوحيد للايجار ! · ولم تعد أم عباس تخرج كعادتها لزيارة الجارات والتجول فى التربيعة · لم يعد أحد يراها وهى تتبختر فى الملاءة اللف كالمحمل وعيناها المكحولتان ترنوان بنظرة دسمة حول عروس البرقع ·

ولم يقنع حسنين باغتصاب دخل الأم فمضى يوما الى دكان عباس وهتف وهو يترنح من السكر حتى طير الأطفال عن ملعبهم :

ـ دلنى على مليم واحد ورثته عن أبيك ؟

وتعلقت عينا عباس بالأطفال وكأنه لا يرى الرجل الآخر ، فأنذره هذا بسبابته صائحا :

ـ ادفع الايجار أو فلتخل الدكان ··

وسارع اليه بيومى اللبان ليهدىء من ثائرته ، وتودد اليه بمعسول الألفاظ حتى مضى به بعيدا وحسنين يقول بلسان ملتو ونثار ريقه يرش وجه بيومى رشا :

ـ معتوه وبلطجى ··

وعند المساء انطلق عباس الى جولته الليلية ، يجود حيثما ذهب ببسمات رائقة وتحيات حارة فى سعادة ملائكية · ودبر حسنين حملة ارهابية جديدة ليحمل أم عباس على أن تبيع له العمارة بيعا صوريا · واشتد الخلاف بينهما فضجت

الحارة بصراخه وتهديداته · وشكت المرأة الى الجارات كربها · وتشاور بعض الطيبين فى السعى لدى حسنين ليعدل عن مطالبه ولكن أحدا منهم لم يجرؤ على اتخاذ خطوة ايجابية خوفا من بطش الرجل وبخاصة أنه اعتدى فى ذلك الوقت اعتداء وحشيا على رجل يدعى « كرمللة » عندما ضبطه يوصل نقودا من ام عباس الى ابنها · وارتفع نحيب المرأة ذات ليلة عقب تعنيف شديد من الرجل ثم علم أهل الحى أنه ضربها ضربا شديدا وأنها لن تطول مقاومتها ·

وعند الفجر تعالى صراخ فمزق السكون تمزيقا · واستيقظ الناس فزعين وفتحت النوافذ وهرع كثيرون الى مصدر الصراخ ، الى القبو · وعلى ضوء فانوس رأوا بيومى اللبان وهو واقف يرتجف · هو أول من يستيقظ فى الحى ليسرح بصفيحة اللبن ولكن ماذا دهاه ؟ · ووجدوه يشير الى مكان فى الأرض فنظروا حيث يشير فرأوا حسنين سابحا فى دمه وقد تكومت جثته أسفل جدار القبو ·

واضطرب الحى اضطرابة عنيفة ، وسرعان ما احتلته الشرطة والنيابة ثم اندفع التحقيق فى جميع الجهات متعقبا كافة الشبهات · استدعى كرمللة وهو آخر ضحية للمقتيل ، وأم عباس ، وبعض سكان العمارة ، وبيومى اللبان نفسه ، وعشرات وعشرات من خصوم الرجل الذين لا يحصيهم عد ، ولكن ثبتت براءتهم جميعا بصورة قاطعة · حتى عباس استدعوه للتحقيق ، ولما سئل عن المكان الذى كان فيه وقت ارتكاب الجريمة أجاب ببساط :

ـ كنت مع الخضر ··

ولما أراد المحقق أن يعرف من هو الخضر أجاب عباس، بدهشة :

ـ ألا تعرف سيدنا الخضر ؟ !

ولكن كثيرين كانوا يعرفون تجوال عباس خطوة فخطوة وقد شهدوا نيابة عنه • وهكذا بدت الجريمة لغزا لا يريد أن يحل • وعرف من التحقيق أن حسنين قتل بآلة حادة هشمت مؤخر رأسه • والحق أن أحدا لم يأسف عليه ، ولكنهم تساءلوا كثيرا عن القاتل ، وظلت الجريمة حكاية الحارة المثيرة زمنا طويلا ••

وظن أول الأمر أن عباس سيرجع الى مسكن أمه ولكنه رفض ذلك باباء • واعتصرت المحنة الأم فغرقت فى الحزن ولكن جمالها قاوم المأساة وخرج منها فى النهاية متألقا كماضيه • وعادت تتبختر بين السكة الجديدة والتربيعة وعاد الاعجاب يحوطها كالهالة •

واذا برجل يتقدم طالبا يدها • كان فى الحقيقة شابا دون الثلاثين ، قصابا أقرب ما يكون الى الفقر ومن أهل الحى المجاور ، جميل الصورة ، دمث الأخلاق ، نظيف الذمة ، وتساءل الناس هل تجازف المرأة بقبول التجربة مرة أخرى ؟• وقبلته المرأة بأسرع مما تخيل أحد • ومع أن بعض الطيبين قالوا ان الله قد عوضها خيرا الا أن كثيرين تهامسوا متسائلين : ترى ألهذا الرجل علاقة بالجريمة الغامضة ؟ ! •

أما عباس فقال كعادته :

ـ لا يصح أن يحل محل الأب رجل آخر •

وخرج الى وسط الطريق ثم رفع رأسه الى عش العروسين صائحا :

ـ يا أم عباس •• الله يسامحك !

وبلغ التهامس المريب مسامع الحكومة فأجرت تحرياتها عن العريس ـ وكان يدعى عبده ـ واستدعى لسؤاله هو وأم عباس ولكن لم يثبت عليهما شىء وظل اللغز أخرس كما كان • وتجلت بالمعاشرة مزايا عبده القيمة فقد وهب المرأة حبا وعطفا



... خرج من دكانه الى الطريق ورفع رأسه نحو مسكن
أمه وصاح بأعلى صوته : يا أم عباس .. الله يسامحك ..

ومعاملة كريمة · وعرض من بادىء الأمر صداقته على عباس ومع أن الشاب نهره قائلا :

ـ دعنى وشأنى ··

الا أنه حباه بعطفه ورعايته وحث أمه على مده بمــا هو فى حاجة اليه من نقود · وأثبت فى الوقت نفسه أنه ذو عقل راجح فقد اقترح على أم عباس أن تبيع حوشا خلفيا للعمارة قائما على ناصيتين لتجدد العمارة بثمنه وتبنى دورا جديدا · وأولته المرأة الثقة التى يستحقها فتجددت العمارة وارتفعت وازداد دخل أم عباس زيادة محسوسة حتى أعجب به الناس وقالوا رجل ولا كل الرجال · وقال بيومى اللبان لعباس وهذا يتناول عشاءه فى دكانه قبل الانطلاق الى جولته الليلية :

ـ أنت لك قلب ملاك فكيف تنفر من رجل طيب كعم عبده ؟

فمضى عبــاس فى تنــاول الزبادى كأنه غير المقصــود بالكلام فتساءل بيومى :

ـ ألا تحب من يحب الناس ويعمر الخرابات ؟

وأعاد عباس سلطانية الزبادى فارغة ثم نظــر فى عينى بيومى قائلا :

ـ الوحش ·· ألم تره وهو يقطع اللحم فى دكانه ؟ !

ووضح فيما تلا ذلك من زمن أن عبــده بار كذلك بأهله فكان كلما خلت شقة فى العمارة أسكنها أحد أقاربه · وكان يخفض الايجار للفقراء منهم باذن من زوجته · وفى ذلك كله لم يجد أحد ما يؤاخذه عليه حتى جاء بأمه وأختين له ليقمن معه فى شقته فعند ذاك ردد البعض المثل القائل : « ان كان حبيبك عسل ما تلحسوش كله » · والحق أن أم عباس لم ترتح لذلك ، وهى قد فوجئت بالأمر الواقع مفاجأة لم تستطع معها منعه ولكنها أدركت أن الزمام قد أفلت من يديها وأنها لم تعد

سيدة بيتها بحال بعد أن اضطلعت حماتها بالمسئولية فشعرت بالضياع ·

واذا به يوما يخلى دكانين من دكاكين العمارة الثلاثة ويهدم الجدار القائم بينهما ليقيم منهما دكانا كبيرا فخما ، ثم انتقل اليه من محله الصغير بالحى المجاور ، وعلقت الخراف والعجول ، وصار أكبر قصاب فى الحى كله · وافتتح المحل الجديد بتلاوة من مقرىء حسن الصوت وحمد عبده الله بصوت سمعه الكثيرون على ما فتح به عليه من مال حلال !

ولأول مرة اختلف الناس فيه فمن قائل انه مثال للأمانة والبر ، ومن قائل انه حسنين آخر حريرى الملمس · وشك أناس فى ذمته وعض الحسد قلوب الكثيرين · وتغير عبده بعض الشىء فاختفت نظرته الوديعة وحلت محلها نظرة جديدة مليئة بالثقة وطعم دماثته المألوفة بقدر من الحزم والعزم اقتضاهما مركزه المالى ومسئوليته كرجل أعمال · ولم يكتف باستعمال حزمه وعزمه فى التجارة فاستعملهما فى البيت أيضا كلما نشب نزاع بين أم عباس وأهله ، واستعملهما خاصة مع أم عباس · ولما كانت المرأة لم تعهده الا لطيفا مؤانسا فقد كبر الأمر عليها وحزنت حزنا شديدا · وساءت الحال بينها وبين أهله ، وأصرت على استرداد ما ضاع من حقوقها فى بيتها ، حتى قالت له يوما :

ـ أنا لا أريد أن يشاركنى أحد فى بيتى ·

واذا بالرجل يقول لها بصوت رهيب :

ـ لك ما تشائين فتفضلى بالذهاب ·· !

ولم تصدق المرأة أذنيها · ثم صاحت :

ـ هذا بيتى ·· وعلى الآخرين أن يتركوه ··

ووقع اشتباك بالأيدى بين النساء فهاله أن يعتدى على أمه ، وانهال على أم عباس ضربا ، ثم دفعها خارج البيت ·

وجدت نفسها وحيدة فى الطريق حتى آوتها أسرة فقيرة تمت بقربى بعيدة الى زوجها الأول ٠ وهز الحادث النفوس هزا وهرع عباس الى ما تحت مأواها الجديد وصاح بأعلى صوته :

ـ يا أم عباس ٠٠ الله يسامحك ٠٠

ولم يدر الجيران ماذا يفعلون ، فلم يكن من اليسير اغضاب الرجل بعد أن كبر نفوذه وتعلقت به مصالح الكثيرين. وفكر البعض فى رفع الخلاف الى ساحة القضاء ولكنهم كانوا يتهامسون بذلك سرا خوفا على أنفسهم ٠ ولم يجهر بالسخرية منه الا عباس حتى غضب عليه الرجل فمنع عنه مصروفه وهو يقول بأعلى صوته :

ـ عبث السفهاء لا يجوز أن يمتد الى المال ٠٠

والتفت الى كثيرين من أهل الحى الذين وقفوا يشاهدون النزاع وقال لهم :

ـ أى واحد منكم أحق بالنقود التى يعبث بها هذا الغلام المعتوه ٠٠

ولكنهم كانوا برمقون الدكان والخراف والعجول ويتساءلون : وهذه الأموال ما شأنها ؟ ! ، أما عباس فلم يكترث لشىء وبدا كأنما يزداد سعادة وسيادة ، وكان ينطلق فى الليل كأنه وارث الملكوت ٠ وقال الناس ان أم عباس امرأة تعيسة الحظ وان قلبها الضعيف يدفعها دائما الى المهالك ٠ وبينما كانت تعيش بفضل احسان أسرة فقيرة كان عبده يتضخم ويشارك فى كل نشاط مالى فى الحى ٠ وسعى بالصلح بينهما أناس طيبون حتى أعادوا المرأة الى بيتها ٠ ولكنها عادت منكسرة النفس لا أمل لها فى حياة كريمة ، ولم يسمح عبده باعادة مصروف عباس اليه الا بشرط أن يشاركه فى دكانه أحد أقربائه هو ليصون المال ويدير العمل ٠ وأحب عبده

الحياة المريحة المترفة فمقد اللاسة الشـاهى الفـاخرة فوق رأسه وتلفح بالعباءة من وبر الجمل ولبس المركوب الملون من خان الخليلى وتحلى بالخواتم الذهبية ، وسبقته رائحة المسك حيث ذهب فيقوم له النـاس على الجانبين حتى يختفى عن الأعين فيتهامسوا :

ــ الله يرحم أيام زمان ٠٠ !

وعنـــد الفجر تعـــالى صراخ فمزق السكون تمزيقا ٠ واستيقظ الناس فزعين وفتحت النوافذ ، ثم هرع الجميع الى القبو ٠ رأوا بيومى اللبان وهو يرتجف فنظروا الى حيث يشير فرأوا المعلم عبده مكوما ورأســه غائص فى بركة من الدم ٠ وزلزل الحى زلزالا عنيفا ٠ وأطبقت عليه الشرطة والنيـابة والمخبرون ٠ واستدعى الى التحقيق عدد لا حصر له من أهل الحى ، ولكن لم يقع على أحدهم ظل شبهة من قريب أو بعيد ، وقطعت الدلائل بأن جريمة عبده ستلحق بجريمة حســنين ٠ وقال أناس وهم يضربون كفا بكف :

ــ ما أعجب هذا ! ٠٠

فقال آخرون :

ــ انتظروا حتى يظهر العريس الجديد ٠٠

ومضى عباس الى دكان بيومى ليتناول عشاءه المعتاد قبل الانطلاق لجولته الليلية ٠ وجعـل بيومى يرمقه بغرابة وهو يأكل الزبادى بأناة وسعادة ، وشاربه ولحيتــه يلتقيان حول فيه ويبتعدان فى حركات متتابعة ٠ وتردد بيومى قليلا ثم قال :

ــ عباس ! أنت أعجب شىء فى حارتنا ٠٠

فابتسم عباس اليه بمودة اذ كان أحب الناس الى قلبه ، فقال الآخر فيما يشبه الهمس :

ــ كان عبده ما زال حيا عندما عثرت عليه فى القبو ٠٠

فتحسس عباس شاربه عند امتداده فوق فيـه ليتأكد من جفافه ، فقال بيومى :

ـ وقد نطق باسم قاتله قبل أن تصعد روحه ‥

فملأ عباس الملعقة بالزبادى ورفعها الى فيـه وهو يركز فيها عينيه ، فقال بيومى :

ـ وهو بلا شك قاتل حسنين من قبل ‥

لاح فى وجه عباس عناء من يستحضر خيـالا لا يرام ، فقال بيومى :

ـ وعند التحقيق نسيت كل شىء وتلك ارادة الله !

أتى عبـاس على آخر ما فى السلطانية وتأهب لمغـادرة الدكان فتساءل بيومى :

ـ من أنت يا عباس ؟ ! ‥ وماذا يقول لك سيدنا الخضر كل ليلة ؟ !

قوس قزح

اجتمعت الأسرة على هيئة مجلس للشـورى · ذلك تقليد جميل متبع من زمن بعيد بفضل حكمة الوالدين : حسن دهمان وهو من رجال التربية وعلم النفس والسـيدة نظـيرة وهى مفتشة كبيرة بوزارة الشئون ، والغرض منه تربوى لاشراك الأبناء فى تحمل المسئولية وتفهم الحياة فضلا عن أنه يجعل من العقل المحرك الأول لسلوكهم · وقالت الأم :

ـ نحن نجتمع لمناقشة مسألة « طاهر » ··

وطاهر هو الابن الأصغر ، فى المرحلة الثـانوية ، يحب ابنة زميل لأبيه تقاربه فى السن ، ولما كانت أسرة الفتاة على وشك الانتقال الى بلد عربى لعدة سنوات فقد أراد طاهر أن يخطب البنت قبل السفر · وقال سمير وهو أكبر الأبناء وطالب بكلية الهندسة :

ـ أعتقد أن الخطبة بالنسبة لطاهر سابقة لأوانها ··

وقالت هدى وهى طالبة بكلية الحقوق :

ـ طاهر متقلب فى عواطفه ، رأيى التريث ··

والتفت حسن دهمان بوجهه الجاد نحو طاهر وقال :

ـ أود أن أسمع رأيك ·· ؟

وبوجه متجهم ، وهو يركز بصره فى تهـاويل السجادة تجنبا لالتقاء الأعين ، قال طاهر :

ـ ما فائدة الكلام ما دام أن العقل سينتصر فى النهاية ؟

وطال الأخذ والرد ، ثم أخذت الأصوات ، وانتصر العقل كما تنبأ طاهر ، وقال الأب معلقا على النتيجة الحكيمة :

ـ هذا هو عين العقل ··

هذه الجملة اكليشيه يختم به الرجل مناقشاته وتقريراته

الموفقة · ومنها يقف طاهر موقفا غير ودى اذ انه طالما عانى المتاعب باسم العقل · ولكن العقل يلعب دورا خطيرا فى حياة الأسرة كأنه معبود · بفضل توجيهه ساد الأسرة نظام عجيب فهى ساعة دقيقة · البيت آية فى الترتيب والأناقة كأنه وجه ذو ملامح أبدية · سقوط عود كبريت أو تزحزح مقعد عن موضعه أو ارتفاع فى درجة صوت الراديو عن الحد المرسوم يعد من الحوادث المزعجة التى تتطلب علاجا سريعا · أوقات الطعام والاستيقاظ والنوم والعمل والراحة تخضع لدقة فلكية ، ويقول حسن دهمان عن ذلك كله :

ـ هذا هو عين العقل ··

ولكل فرد فى الأسرة دفتر توفير ، ونوع من الكتب يلائمه، وحتى الأغانى والبرامج الاذاعية والتليفزيونية تتقرر بعد تشاور ونقاش ، ولدى مواجهة أى مسألة هامة ينعقد مجلس الأسرة ويدلى كل برأيه ، ويفحص هذا الرأى بكل عناية ودقة سواء تعلق بنوع الدراسة أم الحب أم الصداقة أم السياسة ، اجل لا يفلت من هذا النظام شىء ، ثم يقول حسن دهمان بكل ارتياح :

ـ هذا هو عين العقل ··

وعقارب الساعة آيات فى الدقة الا العقرب الصغير فهو مصدر قلق لوالديه ·

ـ ألا تخجل من نفسك يا طاهر ؟

لكنه ينظر بغرابة الى ما حوله · لا يريد أن يتحمس لشىء · ويحضر مجلس الأسرة وهو كاره · ويتحفز للمعارضة بسبب وبلا سبب · نشاز فى أوركسترا العائلة · ويغالب ضحكة مريرة فى أحايين كثيرة · وبلغ به الاستهتار مرة أن اقتحم المطبخ وتناول غداءه قبل موعده المحدد بنصف ساعة · وقال له والده :

ـ ولكن هذا شذوذ لا مبرر له يا بنى ·· ؟
ولما لم يجد منه استجابة من أى نوع سأله .
ـ ألا زلت تفكر فى الخطبة ؟
فأجاب ببساطة .
ـ كلا ، الجوع هذه المرة لا الحب ·· !
ولما ذهب همست نظيرة هانم فى أذن زوجها :
ـ آخر العنقود يا عزيزى ··
فتساءل الرجل مغضبا :
ـ هل نرضى بالهزيمة ؟
ـ كلا ، ولكن الأمر يتطلب عناية مضاعفة ·· .

وآمن طاهر بان « هـذا هو عين العقـل » تطارده حيث ذهب · انهـا تطوقه فى الظاهر والباطن · انه غـريق فى نسيجهـا المحكم · حتى الحب والطرب والحزن · وسـمع لجريان الدم فى أطرافه صـوتا فأيقن أن شـيئا سيحدث · وشاركه احساسه من يعيشون حوله ولكن فى صمت متبادل · ويوما وهو فى الفراندا المطلة على الحديقة الصغيرة حدث شىء · كان موسـم الامتحانات يقترب وسـمير وهدى مكبان على المذاكرة . وكان الأب يكتب بحثا والأم تقرأ مجلة أمريكية . وبكى طاهر · كان فى الفراندا يذاكر · وشعر بأن الحمل فاق احتماله وأن الدنيا لا شىء · وترك الكتاب فوق الترابيزة وراح ينظر فى لا شىء · وحزن حزنا عميقا · ثم انصهرت الكآبة فذابت دموعا · وكتم البكاء أول الأمر أن يسـمعه أحد · ثم تدافعت الدموع بغزارة مذهلة فنشج ثم نحب · وغلبـه ذلك فاستسلم للنحيب حتى هرع اليه الجميع · وقفوا مبهوتين · وجاءت أمه بماء فغسلت وجهه . وظل يبكى بحركات بلا صوت وبلا دموع · وأسند رأسه الى صدر أمه فتلقته بحنان وهى تتساءل بقلق ترى هل جاوزت الحد « المعقـول » فى اظهـار



وقال له والده : ولكن هذا شذوذ لا مبرر له يا بنى ٠٠ ؟

الحنان الذى يعتمل فى صدرها ؟ ٠ ثم هدأ طاهر تماما فجلس واجما ولم يبق من الانفعال الغريب الا نظرة حزينة بكل معنى الكلمة ٠ وساد الصمت وارتسمت الأسئلة فى الأعين القلقة ٠ وسألته الأم :

ـ ما لك يا طاهر ؟

أجاب دون أن ينظر الى أحد :

ـ لا شىء ٠٠

ارتسمت الدهشة والاحتجاج مكان الأسئلة ، وقال له سمير :

ـ خبرنا بما يحزنك ٠٠ !

وقالت هدى بحرارة :

ـ يجب أن نعرف ذلك ٠٠

ولكن الأب أشار اليهما بالخروج فخرجا ثم سأله برقة :

ـ ماذا بك يا بنى ؟

ـ قلت لا شىء ٠٠ !

ـ أيام الامتحانات أيام مرهقة للأعصاب ٠٠ ؟

ـ كلا ٠٠ كل شىء طيب ٠٠

وغادر الرجل الحجرة ليمنح الأم فرصة أطيب ولكن طاهر لم يقل شيئا ٠ ولم يكن يعرف أكثر مما قال ، ولذلك لم يستخلص أحد منه جديدا لا فى تلك الليلة ولا فى الأيام التالية ٠ ونصحه والده بالتريض فى الشوارع المحيطة بمسكنهم ساعة كل يوم قبل أن يجلس للمذاكرة ٠ واعتبر الحادث عرضا من أعراض الارهاق العصبى ٠ ولم يعد أحد يذكره ، ثم نسوه تماما ٠

ويوما قال حسن دهمان باهتمام :

ـ دعوت مديرنا الجديد الى سهرة لطيفة فى حديقتنا الصغيرة ٠٠

وخاطبت الأم الأبناء قائلة :

ـ يجب أن نظهر بالمظهر اللائق وأن تمكثوا معنا قليلا ثم تنصرفوا للمذاكرة ، وسيتوقف على لباقتكم نجاح الحفلة ..

وتساءل طاهر :

ـ أهو صديقك يا بابا ؟

فتفكر الرجل مليا ثم قال :

ـ الصداقة نعمة كبيرة وعلينا أن نستزيد منها كلما وسعنا ذلك ، والمدير العام مجرد زميل أكبر ولكنه سيكون غدا صديقا ، والحياة الاجتماعية تطالبنا بواجبات نافعة لا بد منها ..

وقال طاهر لنفسه : « هذا هو عين العقل » . وكان المدير الجديد قصيرا بدينا ضخم الوجه والرأس أصلع ويتكلم ببطء شديد . وأنعم طاهر فيه النظر وهو يقاوم رغبة شريرة فى الضحك . وأعجبه منظر أمه وهدى وهما فى كامل زينتهما وتابع أحاديث أسرته الطلية بدهشة . وسمع والده يستشهد بالشعر أكثر من مرة وسمع أمه وهى تعلق على شكوى المدير من كثرة نسيانه قائلة :

ـ تلك آية العبقرية يا سعادة البيه ..

وانسحب سمير وهدى فى الوقت المناسب ولكن طاهر لم يبرح مجلسه ، ورغم اشارات أمه الخفية لم يبرح مجلسه ، ولما لاحظ أبوه تطلعه الى المدير قال له :

ـ آن لك أن تذهب يا طاهر ..

فتساءل طاهر :

ـ ألا أقول شعرا يا بابا ؟

وقطب الأب على حين سأله المدير :

ـ أأنت شاعر ؟
ـ كلا ولكنى أحفظ الشعر ٠٠
ـ اذن اسمعنى لأعرف ذوقك ٠٠
فقال طاهر بانتصار :
ـ علو فى الحياة وفى الممات ٠٠
ـ شعر مشهور ٠٠
ـ قيل لمناسبة شنق رجل !
فضحك المدير قائلا :
ـ شعر جميل أما المناسبة فسيئة جدا !
عند ذاك ضحك طاهر ٠ شعر بأن الحمل فاق احتماله وأن الدنيا لا شيء وراح ينظر فى لا شيء ٠ وحزن حزنا عميقا ٠ ثم انفجر ضاحكا ٠ وبادره أبوه فأخذه من يده ومضى به خارجا . وعند نهاية السهرة ناقش الوالدان مشكلة طاهر طويلا فاتفق رأياهما على أنها بحاجة الى علاج حقيقى ، ولكنهما رأيا أن الأوفق تأجيل ذلك الى ما بعد الامتحان ٠

ويوما ارتفع صوت هدى فى البيت وهى تنادى فى شبه استغاثة صائحة « ماما ٠٠ تعالى انظرى ماذا فعل طاهر ! »٠ وهرع الى حجرة الشاب كل من سمع النداء ٠ رأوا الحجرة فى أغرب منظر ٠ منظر لا يخطـر على بال انسـان ٠ حشية السرير قد طرحت فوق المكتب ٠ والكتب والأوراق قد صفت فوق خشب السرير ٠ والصوان انعكس وضعه فالتصق بابه بالجدار ٠ وقلبت المقـاعد على ظهـورها ٠ وطوت السجادة الصغيرة ثم علقت بدوبارة بسلك المصباح الكهربائى ٠ وندت عن الأم صرخة رثاء وهتف الأب :

ـ كارثة ·· كارثة وربى !

وسألوه جميعا عما فعل ؟ وكان يقف وسط الحجرة هادئا وباسما فلم يزد عن أن تساءل بدوره :

ـ ولم لا ؟

وصاحت الأم :

ـ أنت تمزق قلبى ··

فقال برقة :

ـ آسف على ازعاجكم ·

فقال الأب بحسرة :

ـ غير معقول ·· غير معقول ··

ـ لم لا يا بابا ؟ ! ، كنت أقوم بتجربة ، ولو أمهلتمونى لكان ذلك عين العقل ···

وغادر الحجرة الى الفراندا ، وتبعه والده فوجده واقفا ينظر الى السماء باهتمام بالغ · ونظر الرجل حيث ينظر فلم ير شيئا فازداد انقباضا ثم سأله برقة :

ـ أتعبت رقبتك ، لم تنظر هكذا الى السماء ؟

وأهمله طاهر حتى كرر سؤاله مرتين ، ثم قال بضجر :

ـ انى أحسدها على ما تنعم به من حرية !

فقال الأب محذرا :

ـ لكنها مستقر أدق نظام فى الوجود ، النظام الذى لا يخطىء ··

فانزعج طاهر وخفض عينيه غاضبا ··

ـ ألا تحب النظام يا طاهر ؟

فقال بحدة :

ـ لا أحب لشيء أن يتكرر مرتين ·· !

ـ لكنها الفوضى يا بنى ·· !

فهتف الشاب :

ـ ما أجمل هذا !

وتشاور الوالدان فأجمعا على وجوب البدء فى العلاج دون ابطاء ولو ضاع العام الدراسى · واتفقا على أن يستشيرا طبيبا باطنيا أول الأمر ، على أن يذهبا بعد ذلك الى طبيب أعصاب ان نصح الباطنى بذلك ، ثم الى طبيب نفسانى ان لزم الحال ·

وكان الوالدان فى الحديقة يستقبلان بعض الضيوف ، وسمير وهدى يذاكران ، عندما سمع الجميع ضجة فى الطريق وتدافع أقدام فى الداخل وصراخ الخادمين ·

وتبين أن النار مشتعلة فى الطابق العلوى · وانطلقوا جميعا الى الطريق وأحد الخادمين يحمل طاهر بين يديه · وجاءت المطافىء فأخمدت النار قبل أن تستفحل · وقال طاهر فى التحقيق ببساطة مذهلة :

ـ نعم ، أنا الذى سكبت البترول وأشعلت النيران ··

ولما سئل عن السبب أجاب بالبساطة نفسها :

ـ لا أتذكر ··

ثم لاذ بالصمت ·

وانطلقت سيارة المستشفى · جلس طاهر مقيد اليدين والقدمين بين والديه على حين جلس أمامهم مندوب المستشفى :

ـ كم رأينـا من حالات أشد من هـذه ثم عاد أصحابها كأعقل ما يكون ٠

وأراد الأب أن يقول : « ان ذهاب العقل كارثة لا تعادلها كارثة » ولكنه لم ينبس ٠ وساءل نفسه : « ما معنى هذا ! ٠٠ وهل ثمة خطأ ؟ » كان بيته ـ وما زال ـ معبدا للعقل وللنظام فكيف تسلل اليه الفساد ؟ ٠ وحز الألم فى نفسه حتى تتابعت تأوهاته الباطنية وحتى حسد زوجته على سخاء عينيهـا ٠ ولحظ الابن العزيز بطرف عينه فرآه قد أغمض عينيه فعض على شفته ٠

وتطوع المندوب للتخفيف من كآبة الجو فقال :

ـ المستشفى خير مكان له فلا تحزنا لذلك الاجراء الذى لا بد منه ٠٠

ولم تكن لدى حسن دهمان رغبة فى الكلام ولكنه أراد أن يجامل الرجل بقـدر ما يسـتطيع فتمتم وهو من الحزن فى غاية :

ـ صدقت يا سيدى ، هذا هو عين العقل ٠

الصّمت

ما أفظع هذه الحجرة · كميدان قتال · لا ترى العين فى أى موضع منها الا سلاحا يقشعر منه البدن · وهو لا يعرف الا المقص ولكن المعرض حافل بما يشبه السكاكين والخناجر والدبابيس من كافة الأشكال والأحجام · وثمة أوعية ملوثة بالدم تحت الموائد المعدنية · وقطن وشاش ، ورائحة أثيرية نافذة كنذير من عالم مجهول ، وثلاثة أطباء · الطبيب المولد وطبيب القلب وطبيب التخدير ، وممرضة بدينة لكنها فى خفة النحلة ولا تمسك عن الحركة · لم ير الأشياء الا خطفا على حين تركزت عيناه فوق السرير المرتفع حيث ترقد زوجته مطحونة بالصراع ، مرفوعة الساقين فوق حاجز قائم فى نهاية السرير وقف وراءه المولد فى معطفه الأبيض ، لا يبدو منه الا نصفه ، ويشى أعلى ذراعه بحركة يده المختفية · وراحت زوجته تقلب رأسها يمنة ويسرة كاشفة كل مرة عن عارض من وجهها المتقبض من الألم ، الذى استقرت فى صفحته زرقة مغبرة · آه ·· حتام يطول الصراع ؟ ، متى يجود بالراحة الرحمن ؟ · ويد الطبيب لا تكف عن الحركة ، وهو ينظر نحوه أكثر الوقت ، فى بساطة واستهانة ويبتسم ولا ينقطع عن الكلام ··

ـ ما أعظم الفارق بين صورتك الحقيقية وصورتك على الشاشة !

هز رأسه وهو ينتزع من شفتيه الجافتين ابتسامة مجاملة،

واضطر فى ذات الوقت أن ينزع عينيـه من الوجه المعـذب ليبادل الطبيب نظرة بنظرة على سبيل المجاملة أيضا ٠

ــ ما أبدع الفن ! ، وفن التمثيل هو سـيد الفنـون فى نظرى ! ، انك تضحكنى من أعماق قلبى ، لا أحد يضحكنى هكذا ولا الأمريكيون أنفسـهم ، ودور الباشكاتب فى فيلمك الأخير دور عجيب حقا ، تفوقت فيه على نفسك !

لاحت فى عينى الطبيبين الآخرين ابتسـامة ، واسترقت الممرضة اليه نظرة باسمة كذلك ، تحيـة لدور الباشكاتب ٠ ونظر الأستاذ صقر نحو زوجته على أمل أن يكون الحديث قد لطف من كربها ولكنه وجدها غارقة فى دنياها الخفية فساءل نفسـه متى ينتهى عذابهـا ؟ ، ومتى يرحمـه الطبيب فيتركه لنفسه ؟ ٠ واذا بالطبيب يخاطبها قائلا :

ــ ساعدينى ! ، يجب أن تساعدينى كما قلت لك مرارا ، شدى حيلك وأرينى شطارتك !

وهمست بصوت هو الأنين :

ــ لا قوة لدى ٠٠

ــ بل لديك قوة عظيمة ، ولن تتم الولادة الا بمساعدتك ، افهمى ذلك جيدا ، أنا فى انتظار صوتك !

استجمعت قواها الخائرة ، تتابع الصراخ فى قوة لا بأس بها ولكنه سرعان ما وهن فتقهقر الى أنين مبحوح ٠ وزادت يد الطبيب حركة ٠ وعاد يقول :

ــ والفيلم فى جملته ممتاز أيضا ، قرأت مرة فى مجلة أنك تشترط قبل التعاقد على دور أن تطلع على السيناريو ٠٠ ؟

انتزع عينيه من زوجته مرة أخرى وقال :

ــ نعم ٠٠

ــ لكن ما معنى السيناريو ؟

يا للعذاب !

★ ★ ★

ـ هو اعداد القصة للسينما ٠٠

ـ أنا أقرك على موقفك ، يجب أن تقـرأ السيناريو أولا حتى تضمن لموهبتك فيلما يناسبها ٠٠

ـ شكرا ٠٠ شكرا ٠٠

وتأوهت المرأة تأوهات متقطعة فقال الطبيب معاتبا :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ ، ليس هذا ما أريد ، الست هى التى تولد نفسها !

ومال الأستاذ صقر فوق أذنها هامسا :

ـ شيئا من التعب يا عزيزتى كى يجىء ربنا بالفرج !

فقال الدكتور ضاحكا :

ـ أطيعى كلام هذا الرجل المسئول ! ٠٠ (ثم ملتفتا نحوه) لم أعرف أنها كانت زميلة لك فى المسرح الا عن طريق احدى المجلات أما أنا فلم أرك فى المسرح ولم أرها كذلك لأننى لست من رواد المسرح ٠٠

ثم بعد هنيهة صمت :

ـ أنت لست معى !

فانتبه صقر قائلا وقد تكاثف عذابه :

ـ معك يا دكتور !

ـ خبرنى ما أحب أدوارك اليك ؟

رياه انها لا تجد قوة للطلق ، ولكن ينبغى أن يكون الخطر بعيدا والا ما استرسل الدكتور الذى لا يرحم فى استجوابه :

ـ ماذا قلت ! ، أحب الأدوار اليك !

ـ لعله دور العسكرى ! ٠

ـ تعنى فيلم حريقة بلا نار ؟ ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠

وانفجر صراخ من الأعماق ، تصاعد حارا مليئا كأنمـا يقذف بفتات الصدر والحلق ٠ واستحثها الطبيب على المزيد



... ونظر الأستاذ صقر نحو وجه زوجته على أمل أن يكون الحديث قد لطف من كربها ولكنه وجدها غارقة فى دنياها الحقيقية ..

وهو يتركز فى حركة يده الآخذة فى السرعـة ٠ وأعقب ذلك تأوه عريض مرتفع ما لبث أن هبط الى درجة الأنين ثم انداح فى الصمت ونقل صـقر بصره من الوجه الأزرق المغبر الى الساقين الى وجه الطبيب وتساءل ترى أهو الختام المريح ؟!. واقترب طبيب القلب فجس النبض أما المولد فتراجع خطوة ثم خلع معطفـه والقفـاز ودار حول السرير حتى وقف أمامـه باسما ٠ همس صقر :

ــ الحمد لله ؟

ــ الحمد لله دائما ٠٠ تعال ٠٠

ومضى الى حجرة داخلية فتبعه ، وهناك قال الطبيب :

ــ ضاعت الجولة هباء ، ولن يعاودها الطلق قبـل أربع ساعات على الأقل ٠٠

ثم وهو يهز رأسه :

ــ واذا لم تتيسر الولادة بحال طبيعية فلا بد من جراحة ..

ــ جراحة !

ــ لم لا ؟ ، القلب سليم ، وليس بها أمراض ، ألم أنصحك آخر مرة بتجنب الحمل ؟ ! ٠

بهت صـقر ٠ ومضى الى الصـالون فجلس بين أعضاء الأسرة التى تلقت الخبر بانزعاج حقيقى ٠ وذهبوا الى حجرة الزوجة فوجدوها تغط فى نوم عميـق فعادوا الى مجلسهم ٠ وضـاق صـقر بالجلسة وشعر بحاجة ملحة الى الحركة ٠ استقل سيارته الدودج الى قهوة الشمس ، قهوة الزملاء ، وان لم يأمل فى العثور على أحدهم فى تلك الساعة من الصباح ٠ وعنـد مدخل القهوة ناداه صوت قوى فمضى الى صـاحبه وجلس الى جانبه فى الممر المكشوف تحت سماء مجللة بسحب الخريف ٠ تربع جميل الزيادى فى مجلسـه تحوطه هالة من

الفخامة مصدرها بدانته المتناسقة ، وهو زميل قديم لصقر من عهد المدرسة الابتدائية ، أما اليوم فهو من الأعيـان وعشاق المسرح ٠ وكان صقر فى حاجة حقيقية الى المشاركة الوجدانية فقال :

ـ اطلب لى فنجال قهوة فانى فى حالة اغماء !

فطلب له القهوة وهو يتساءل :

ـ ما لك كفى الله الشر ؟

وأعاد على سمعه ما قال الطبيب فلم يبد عليه أنه اهتز أقل اهتزاز لكلمة « الجراحة » وقال ببساطة :

ـ سليمة باذن الله ، والنساء يلدن من عهـد حواء فلا تخف ٠٠

ـ المسكينة تتألم بدرجة فظيعة ، ويقـولون إن الجراحة خطيرة ٠٠

فتناول الرجل شوية فول سودانى من طبق فنجال ممتلىء وهو يدعوه الى مشاركته ثم قال :

ـ اشاعات يروجها الأطبـاء ليبرروا مطالبهم ، المطالب هى الخطيرة حقا ٠٠٠

وضحك لذكرى وردت للمناسبة وقال قبل أن يفتح صقر فاه :

ـ عند مولد ابنى اسماعيل أتعلم ماذا حدث ؟

حنق صقر على مولد اسماعيل الذى اقتحم عليـه عذابه وأجل عزاءه المأمول لوقت لا يعرف مداه !

ـ ولدته أمه فى ثمـانى عشرة سـاعة ! ، جاءها الطلق الساعة السادسة صباحا وأدركها الفرج عند منتصف الليل !، أى عـــذاب تتخيله ؟ ، ومع ذلك كله فقـــد ولدت فى البيت وبوساطة حكيمة لا دكتور ولا دياولو ! ٠

فهز صقر رأسه كأنما يتذوق عبرة حقيقية ، ثم تساءل :

ـ لكن ماذا تعرف عن جراحة الولادة ؟

ـ تهويش أطباء ، هذا مدى علمى ، هل عندها ضغط أو زلال أو سكر ؟

ـ كلا ..

ـ اذن فهى لا شىء ، وقد قالوا لنا عند مولد ابنتى عزيزة انه لا بد من جراحة ! ، لماذا ؟ ، الحكاية ان الولادة طالت أكثر من المتوقع فاستعانت الحكيمة بدكتور فنصح بنقلها الى المستشفى لاجراء جراحة عاجلة ، وقبل أن يبتعد مترا عن بيتنا جاء الفرج !

تابعه بنظرة مغيظة وهو يطحن الفول السودانى بتلذذ عجيب ، واذا به يقول مسترسلا فى ذكرياته :

ـ الولادة العسيرة حقا كانت ولادة سوسن ابنة أختى !

نظر صقر الى الأرض ليخفى كربه فواصل الآخر حديثه :

ـ كانت ضعيفة القلب ، وأجمعوا على اجراء جراحة ، واستكتبوا زوجها اقرارا بالموافقة ، وشقوا بطن البنت ..

ـ شقوا البطن ؟ !

فضحك جميل قائلا :

ـ هى الآن بفضل الله كمفتشات الرياضة البدنية ! .

وخيل اليه أنه سيدخل فى حديث ولادة أخرى فقام الى التليفون وسأل عن الحال فجاءه الجواب بأنها نائمة فى هدوء تام . وعاد الى مجلسه كارها فقال له جميل :

ـ يجب أن تعود الى المسرح ، أنا لا أحب السينما ، وان شئت فاعمل فى الاثنين ولكن لا تنقطع للسينما !

فتمتم بفتور :

ـ أنا هجرت المسرح منذ أكثر من عشرين سنة !

ـ ولو ! ، هذا رأى الأستاذ سمير عبد العليم أيضا ، وعلى فكرة قابلته قبل مجيئى الى القهوة مباشرة وكان يسأل

عنـك ، والظاهر أنه اتصـــل بك فى المنزل حينما كنت فى المستشفى ..

ـ ماذا يريد ؟ .. ألم يقل لك ؟

ـ أبدا ، مطالبه لا تنتهى كما تعـلم ولكنـه ظريف وابن حلال ..

استقل سيارته الى مجلة « كلام الناس » حيث وجد صديقه الناقد سمير عبد العليم يكاد أن يختفى وراء الأوراق المكدسة فوق مكتبه . تعانقا وسمير يقول :

ـ بحثت عنك فى كل مكان ، أين كنت ؟

فجلس وهو يقـول مرحبا بالفرصة التى واتتـه لاعلان أحزانه :

ـ كنت فى المستشفى ، راضية فى حالة ولادة !

هنأه بصـوت خطابى وهو ينكب على الأوراق باحثا عن شىء هام فيما بدا ، فقال صقر :

ـ ولادة خطيرة يخشى ألا تتم الا بجراحة !

والظاهر أن سمير لم يسمعه لشـدة انهماكه فى البحث غير أنه قال بمرح :

ـ نحن نطالب بولى عهد للمسرح الكوميدى !

فرفع صقر صوته قائلا :

ـ ولادة خطيرة يخشى ألا تتم الا بجراحة !

انتبه سمير اليه وقد كف عن البحث لحظة فأعاد صـقر على مسمعه أقوال الطبيب فقال الناقد :

ـ ربنا يكتب لها السلامة ، الطب تقـدم وانقضى عهـد الجراحات الخطيرة ...

ثم انهمك فى البحث مرة أخرى وهو يقول :

ـ أنا نفسى جئت الى هذه الدنيا بجراحة ، وفى زمان كان

الطب فيه كالطب عند قدماء المصريين ، يا سلام على الفنانين وأعصابهم المرهفة ٠

وندت عنــه آهة ارتياح لعثــوره على الأوراق التى كان يجد فى البحث عنها ، وأخذ يرتبها بعناية وهو يقــول بنبرة جديدة دلت على أنه نسى الحديث الأول تماما :

ـ اتفقت مع صوت العرب على برنامج جديد أســبوعى باسم « أهل الفن » واخترت أن أبدأ بك ٠٠

ـ لكن يقولون ان جراحة الولادة خطيرة يا سمير ؟

ـ لا شىء خطير ألبتة ، وستضحك غدا من قلقك هذا بملء فيك ، المهم أن هـــذا البرنامج يقتضى تسجيل منـــاظر من مسرحياتك القديمة ، الأفلام أمرها ســهل ويمكن تسجيلها فى أى وقت أو طبع نسخ جديدة من الفصول التى يتفق عليها ، ولـكن المسرحيــات كيف نسجلهــا ، كيف نجمــع الممثلين القدامى ؟، ومن يحل محل الذى مات منهم ؟ ٠٠ هذه المشكلات ومثيلاتها تشغلنى طيلة الوقت ٠٠

أوشك أن يغضب ولكنه استسخف نفسه فانزوى فى وحدة حالكة ٠

ـ ما رأيك فى هذا النظام ؟ ، سأبدأ بمقدمة عنك ألقيهــا بنفسى ، يعقب ذلك حوار بينى وبينك أنا أسأل وأنت تجيب ، يتخلل ذلك منـــاظر من المسرحيات ومواقف من الأفلام ، ثم جلسة عائلية فى بيتك ، ولكن آه ٠٠ راضية ستكون متوعكة ربنا يشفيها ؟ !

ـ آمين ، ماذا تعرف عن جراحة الولادة ؟

ـ كل خير ، لا تصدق الأطبــاء ، الصعوبة الحقيقية فى تسجيل المسرحيات القديمة ، اتصلت بكثيرين من الممثلين ، ولكن هل لديك أصول المسرحيات ؟ !

ولما لم ينبس قال سمير :

ـ أنت لست معى !

ـ معك ، عندى الأصول ، عن اذنك التليفون ٠٠

وكرر السؤال عنها فتلقى نفس الجواب ، وأعاد السماعة مغمغما « يا رب » ٠ وقال سمير :

ـ تعال لمقابلتى فى الاذاعة مساء الأحد ٠٠

ـ ربنا يطمئنى أولا ٠٠

ـ ان شاء الله ، لا تكن خوافا هكذا ، ألا ترى أنك تذكرنى بدور الباشكاتب الذى تفوقت فيه على نفسك !

عاد الى قهوة الشمس فوجد أن مجلس الزملاء قد انعقد كشأنه ظهر كل يوم ٠ وصمم على ألا يعلن شكواه لأحد فجاراهم فى أحاديثهم بقلب غائب واشترك أحيانا فى قهقهاتهم التى ترج القهوة فى تلك الساعة من النهار ٠ وعند الواحدة قاموا ليتناولوا الغداء فى المقطم ، دعوه للذهاب معهم فاعتذر فمضوا الا واحدا هو حيدر الدرمللى ، وهو زميل قديم عمل فى مسرحه ملقنا ويشتغل اليوم مدير انتاج فى شركة سينمائية ٠ ولم يدر بالسبب الذى جعل حيدر يتخلف عنهم حتى قال هذا بقلق :

ـ ظهرت نتيجة تحليل الدم وهى ليست على ما يرام :

تذكر أنه شكا اليه مرضا ألم به منذ عشرين يوما فى أحد الاستديوهات فقال له معتذرا :

ـ آه نسيت أن أسأل عن صحتك بسبب زياط اخواننا وتهريجهم ، آسف يا حيدر ، أنا شخصيا فى كرب عظيم !

واضطر حيدر الى تأجيل الكلام عن تحليل الدم الى حين وسأله :

ـ لم والعياذ بالله ؟

فحدثه عن حال زوجته حتى قال حيدر :

ـ أسأل الله لها السلامة ، ولعل الولادة تتم دون جراحة ، ولكن خبرنى ماذا تعلم عن زيادة كريات الدم البيضاء ؟

ـ لا أدرى ، وعلى أى حال فالطب تقـدم جدا ، فوق ما تتصور ، ولكن ٠٠ ولكن أنا المسئول !

ـ أنت ؟ !

ـ نعم ، كان يجب أن أحتاط فلا أسمح بالحمل مهما تكن الظروف ٠٠

هز حيدر رأسه فى امتعاض وهو يتكلف الاهتمام بكلام الآخر تكلفا ولكنه لم ينبس بكلمة فقال صقر :

ـ ولما وقع المحذور كان على أن أجهضها بأى ثمن ، وهاك نتيجة الاهمال ٠٠

فتبسم حيدر وهو يجول فى المكان بنظرة ذاهلة :

ـ دنيا ! ، يعنى أنا كان مالى ومال الكريات البيضاء !

ـ على رأيك ! ، وهل تدرى ماذا تعنى جراحة الولادة ؟٠ شق البطن !

ـ ربنا لطيف بالعباد ، وهل تدرى أنت أن مرضى يجهله أطباؤنا ويقفون حياله حيارى ؟

ـ لا تتشاءم ، ربنا لطيف بالعباد كما تقول ، والا فمن لأم تتعذب هذا العذاب وهى تهب الدنيا مولودا جديدا ؟ !

وأجهدهما الكلام فيما بدأ فلاذا بالصمت ، واندفن كل فى ذاته فاجتر أحزانه وحده ٠ ونظر صقر فى السـاعة ثم طلب القهوة الرابعة مذ غادر المستشفى وأشعل السيجارة العاشرة. وتساءل عما يخبئه له اليوم ! ٠ وتجنب صاحبه كما تجنبه صاحبه فقام بينهما سد ٠ وقال صقر وكأنما يخاطب نفسه :

ـ انى أعجب كيف أنى أكرس حياتى لاضحاك الآخرين !

فتساءل حيدر بنبرة باردة :

ـ ألا يدفعون ثمن ذلك بسخاء ؟

ولم يناقشه رغم ما بدا له من امكان ذلك · وعاد ينظر في الساعة ويتساءل عما يخبئه له اليوم ·

وأغمض عينيه فشعر بشيء من الراحة ولكن ضوضاء الطريق ضايقته كما لم تضايقه من قبل فود لو يغرق كل شيء في الصمت ··

بيت سيئ السمعة

كان منهمكا فى عمله عندما استأذنت سيدة فى مقابلته ، وجلست وهى تقول :

ـ صباح الخير يا أستاذ أحمد ٠٠

سيدة واضحة الكهولة ، مقعرة الخدين من ذبول ، بارزة الفم ، تعكس عيناها نظـرة متعبة ، وتضفى عليهـا ملابس الحداد تجهما وكآبة ٠ وسرعان ما أدرك من مطلع حديثها أنها قصدته بأمل أن يسهل لهـا الاجراءات الخاصـة بمعاشها ٠ وهمّ بتحويلها الى مدير المعاشات مشفوعة بتوصية غير أن لمحة فى نظرة عينيها المتعبتين استرعت انتباهه ٠ خيل اليـه أنها ترمقه بنظرة خاصة تراوح بين الارتباك والخجل ٠ ما سر ذلك يا ترى ؟ ، هل تعرفه ؟ ٠ وفى الحال ومضت فى ذاكرته ومضة أضاءت غياهب الماضى فهتف فى ذهول :

ـ حضرتك ٠٠ ؟

قالت وهى تغض بصرها فى حياء وتأثر :

ـ نعم ، ومن حسن الحظ أنى عرفت أن حضرتك مراقب عام المستخدمين !

ولم يكن تذكر اسمها ، ولكن وثب الى ذهنه اسم التدليل الذى عرفت به : « ميمى » ٠ ان منظرها أكبر من عمـرها ٠ وعمرها لا يمكن أن يجاوز الخمسين ٠ ولعـله من الذوق أن يختلق سببا لعدم معرفتها بالسرعة التى ـ لا شك ـ توقعتها ٠ قال :

ـ كنت مشـغولا جدا فنظرت اليـك بعينين غائبتين فلم أعرفك ٠٠

فابتسمت عن طاقم نضيد وقالت :

ـ أنا تغيرت أيضا ، الضغط ربنا يكفيك شره ، والحياة أنهكت أعصابى ، لى بنتــان متزوجتان ، وثالثة فى بعثــة ، وعندما وصلنا الى بر الأمان توفى المرحوم زوجى ٠٠

وتبادلا الســؤال عن الأسرتين فتردد ذكر من تزوج ومن مات ومن يقيم فى القاهرة ومن انتقل الى الأقاليم ، وكان فى أثناء ذلك يحاول أن يستحضر صورة ميمى القديمة بصعوبة لا تكاد تقهر فاحتج مرات على قســوة العبث ٠ وأخيرا كتب لها توصية الى مدير المعاشات وانتهت المقابلة ٠

عاد الى مجلسه ـ بعد أن أوصلها الى الباب ـ وهو يعيش فى حلم ٠ وبحث فى ضباب الحلم عن عام ٠ أى عام يا ترى ؟. ١٩٢٥ ٠ عام ملىء بالأحداث التاريخية ولكن ميمى كانت أهم من تلك الأحداث جميعا ، ميمى وبيتهــا العجيب ، ومنشــية البكرى القديمة الراقدة فى صحراء البنديرة ، شارع الملوانى، والبيوت الصغيرة ذات الدور أو الاثنين تصطف على جانبيه ، ومن أعالى الأبواب الخارجية تتدلى مصابيح للاضاءة ليلا ٠ كل بيت ينطوى على نفســه كالسر ٠ النســاء عورة والحب حرام ، والزواج اجراء من اختصاص الرجال والعروس آخر من يعلم ٠ غير أن بيت آل حلاوة خرق العقل والمعقول وقام وحده ككلمة متحدية ٠ عرف بالبيت السيىء السمعة وأحيط بسياج من الرهبة ٠ ومجرد جريانه على لسان صبى أو بنت كان جريرة يستحق من أجلها الزجر ٠ وضربت حوله المقاطعة كأنه وباء ٠ وحتى اليــوم لا يذكر الا مصحوبا بســوء الظن وبذلك تحدد فى التاريخ ٠ آه ٠٠ كيف كان ذلك ؟ ! ٠

كانت ربة البيت ـ وهى زوج لموظف كبــير ـ امــــرأة متبرجة ٠ تتبدى فى الطريق فى كامل زينتها عارضــة حسنا رائقا رغم بلوغها الخمسين ، وهى السن التى انتهت عندها ميمى ٠ وكانت أول امرأة فى الحى ترى سافرة فلا برقع أبيض

ولا أسود · وقد تصطحب معهـــا بناتهـا الأربع فتمضى بهن سافرات كذلك ، آخذات زينتهن ، وهو ما لم يسمح به لبنت قبل خطبتها · وكن يذهبن مرة فى الأسبوع ـ مع الزوج أو دونه ـ الى سينما كوزموجراف ، وقد يسهرن فى مسرح من المســارح فلا يرجعن قبـل الواحدة صباحا · أى امرأة وأى رجل وأى بنات ! · والأدهى من ذلك كله أنه كان للأسرة يوم زيارة تستقبل فيه بعض الأسر بكامل هيئتها فيختلط الجنسان بلا حرج : وكان شبان الحى يسـيرون جماعات تحت حجرة الاستقبـــال المتلألئة بالأنوار ، يصغـــون الى الضـحكات المتصاعدة ، وعزف البيان ، والغناء ، وكلما ظهر فى النافذة طربوش تبادلوا الغمزات والنكات وذهبـوا فى التـأويل كل مذهب وتخيـلوا أعجب المواقف · لذلك كله لم يكن غريبا أن يذكر بيت حلاوة مقرونا بلفظـة « دعارة » دون مناقشـة · وكانت الأسرة على علم بآراء الجيران ومشاعرهم ولكنها لم تكترث لذلك أدنى اكتراث ، وترفعت الهانم عن الجميع وسارت فى طريقها شامخة الأنف كأنها من ســلالة غير سلالة الحى جميعه ·

وكانت ميمى ترى كثيرا فى الطريق أو فى دكان الحلوى . ترى وحيدة وكانت صغرى البنات وفى الخامسة عشرة وكانت جميلة كأخواتها وأمها وان لم يعد يذكر من آى ملاحتها الا شـعرها الأســـود المتجمع فى ضـــفيرتين ريانتين وعـــينين خضراوين وغمازة فى الذقن · وكان يســترق اليهــا نظرات دهشة متسائلة مليئة بحب الاستطلاع ، ولم تخل أول الأمر من ازدراء وسخرية ثم حل محلهما اعجاب وافتتـان فكان يقول لنفسه محزونا : « يا للخسارة » · وشغف بها وكان يكبرها بعام أو اثنين ، واحتفظ بسره لنفسه قطعـا للألسنة ، وكان البعض يغازلها طمعا فيها باعتبارها صيدا ســهلا ولكنه لم



.. وان لم يعد يذكر من آى ملاحتها الا شعرها الأسود المتجمع
فى ضفيرتين ريانتين وعينين خضراوين وغمازة فى الذقن ..

يكن عرف الاستغلال قلبه . وذات مساء وهبته نظرة على غير انتظار . كانا واقفين بدكان الحلوى فوهبته نظرة غير قصيرة أثملته فترنح بعيدا عن تيار الزمان وأفعمت قلبه بهجة ظافرة . فاض قلبه بسعادة مشرقة اقتلعت منـــه الوســاوس فلم يعد يشترك فى الأحاديث البهيمية عن البيت الســيىء السمعة . وآمن بأن شعور قلبه الأصيل أخطر من جميع ما يقال . وفى ليالى رمضان راح يلاعبها من بعيد بكبريت الهوا فيشعله فى الطريق فتشعله بدورها فى النافذة . وتواعدا على اللقاء عند صحراء البنديرة . ووجد نفسه عند اللقاء مرتبكا حقا ولكنها بادلته التحية دون تلعثم وبشجاعة ردت اليه روحه الضائعة . وقالت :

ـ أنت فى البدلة أرشق مما تظهر فى الجلباب وأنا أحب الرشاقة !

وكل كلمة جادت بها كانت كشفا جديدا وجرأة مذهلة . وكانا صغيرين جدا بالقياس الى خلفيـــة الصحراء المترامية وراءهما ورغم ذلك قال فى حذر :

ـ قد يرانا أحد !

فتساءلت :

ـ مثل من ؟ !

ـ من الأهل أو الجيران .

فهزت منكبيهــا اســتهانة وهواء الصيف المنعش يهفــو بضفيرتيها ثم سألته :

ـ ما رأيك فى حديقة الحيوان ؟

وامتنع عن تقبيلها تأدبا رغم سنوح الفرص . وأعطته رقم التليفون ليتفقا فى الوقت المناسب ولعله ما يزال مسجلا فى دفتر المذكرات القديم . وسألته :

ـ هل نذهب الى الحديقة معا ؟

فقال برجاء :

ـ نلتقى هناك ونفترق هناك !

وتلاقيا عند باب الحديقة وكان يوم سعيد . سارا من ممشى الى ممشى بيدين مشتبكتين . واستمد من مسها تيارا من الحرارة والبهجة والرضى وسألها كأنما ليطمئن عليها :

ـ ماذا قلت لماما ؟

فأجابت ببساطة :

ـ قلت انى ذاهبة الى حديقة الحيوان !

فتساءل أحمد ذاهلا :

ـ وحدك ؟

فهزت رأسها نفيا وقالت بالبساطة نفسها :

ـ معك ..

فضحك معلنا عدم تصديقه ولما وجدها جادة جدا سألها :

ـ وهل وافقت ؟

ـ نعم ! ، ولكن دون حماس ..

لم يدر كيف يصدق هذا كله أما هى فاستطردت :

ـ قالت لى ابتعدى عن هذا الولد ، انه كالآخرين ، وأهله كبقية الجيران ..

وشعر بأنه مطارد . ووقف طرفه الحائر عند رأس نعامة سارحة فى الفضاء من فوق الحاجز الحديدى .

ثم قال بقلق :

ـ اذن هى تعلم أننا هنا معا .. !

ـ وراهنتنى على أنك ستخيب رجائى ..

ـ كيف ؟

ـ من أدرانى ؟

بل هى تدرى ولكنها تظاهرت بالاهتمام بالقرود ، ثم

وقفت فوق قنطـرة تتـأمل الماء المسـقوف بأوراق الشجر ، واقترحت أن يعدوا حتى الجبلاية ولكنه شد على يدها قائلا :

ــ خبرينى !

فنظرت فى عينيه بجرأة وقالت :

ــ أنت لا تصدق أنها تعرف أننا هنـا معـا ولكنك تعلم بزواج أخيك الأكبر من ثلاث فى وقت واحد !

فاحمر وجهه وقال :

ــ هو حر ..

ــ لا تغضب من فضلك ، فغضبك يؤكد ظنهـا ، هل عرفت الآن ما سألت عنه ؟

وداخله حزن . الواقع فاق ما تخيله . انهما من عالمين بعيدين . ورغم ذلك ازداد بها هياما .

ثم تساءل بصوت منخفض :

ــ وكيف وافقت على هذا اللقاء ؟

ــ لم لا ؟ . هو عيب ؟ !

ولم ينبس فسألته بسخرية خفيفة :

ــ ولم وافقت عليه أنت ؟

فلم ينبس أيضا فسألته :

ــ أيجب أن نفترق ؟ !

فاستعطفها بحرارة لتعود الى الرضى وقال معتذرا :

ــ لا تغضبى ، أنا أخطىء كثيرا وعذرى أنى أقابل بنتا لأول مرة ! .

فرمقته بتوجس وتساءلت :

ــ وماذا تظن بى أنا ؟

فبادرها تجنبا للمضاعفات :

ــ كل خير ، أنا ..، أنا أحبك يا ميمى ..

وابتسمت · ومضت به الى أريكة تمتـد أمامهـا هضبة معشوشبة تناثرت فى جنباتها مجموعات من البشر فجلسـا جنبا الى جنب صامتين ، حتى قطعت الصمت قائلة :

ـ حدثنى عن مستقبلك ··

وتحدث عن مستقبل مشرق من خلال كليـة الحقوق وان يكن أوشك أن يختم حياته مراقبـا للمستخدمين لا مستشارا فى النقض كما حلم · فقالت :

ـ هذا جميل حقا ، ولكن ماذا عنى أنا ؟

ووجد نفسه فى القفص كالحيوانات التى تحيط به من كل جانب فقال فى اقتضاب شديد حددته الرهبة :

ـ الزواج ··

فابتسمت وهى تحول وجهها عنه مادة بصرها الى قمـة الهضبة الخضراء وقد غابت عن مسـمعه ضجة الأصـوات الآدمية والحيوانية · ثم قالت وهى ما تزال تنظر الى بعيد :

ـ ولكن أمامنا أعواما طويلة ! ·· كيف ··· ؟

فقال وهو يتلمس متنفسا :

ـ لا بد من الانتظار حتى انتهى من الدراسة ··

ـ سأنتظـر بكل سرور ، ولكنى فى حاجة الى شىء يبرر انتظارى أمام الآخرين ، أى شىء ، ارتباط من أى نوع ؟ ! ·

تخيـل طلبه الارتباط ببنت من البيت السـىء السمعة بتعاسة ورعب ، وانعقد لسانه فلم ينطق ··

ـ ماذا قلت ؟

ـ من العسير حقا أن أطلب ذلك الآن ··

ـ ألا تقدم على هذه الخطوة من أجلى ؟

فتنهد بصوت مسموع وهو يشعر بأنه جرى مرحلة طويلة من التاريخ دون توقف ، فقالت بحدة :

ـ أنت لا تريد ، ليس عنـدك الشجاعة الكافية ، أبيتنـا مخيف الى هذه الدرجة ؟

ـ لا ٠٠ الأمر وما فيه ٠٠

ـ لا تـكذب ، أنا أعـرف كل شيء ، وماما لم تخطيء ، وشارعنا كله سخافة فى سخافة ، ونحن أشرف من الجميع ، يجب أن تعرف ذلك ٠٠

فهتف متألما :

ـ انك تسـيئين بى الظن ، أنا فى حاجة ٠٠ ، أرجو أن تقدرى موقفى ، أعطينى ٠٠

ـ لا داعى لهذا الارتباك كله ، لتنس كل ما قيـل ، كله سخيف من أوله الى آخره ٠٠

ـ لكننى أحبك ، ليكن الأمر سرا بيننا حتى ٠٠

ـ نحن لا نحب السر !

ـ حتى أقف على قدمى ! ؟

ـ لن تقف على قدميك أبدا ٠٠

ثم وهى تكاد تمزق منديلها الصغير من الانفعال :

ـ أعوذ بالله ! ، أنا لا أحترم أحدا فى شارعنا ! ٠٠ بلا استثناء ٠٠ بلا استثناء ٠٠

هكذا انفصلا الى الأبد ٠

وكان يستقبل سيل الذكريات وهو ينظر الى الكرسى الذى طالعته منه بوجه لم يحفظ من ماضيه الا أضعف الأثر ٠ أرملة أضناها التعب والحداد ولكنها معتزة بانتصارات حقيقية ٠ وحومت حوله الذكريات كأسراب من البنفسـج ٠ تذكر كيف تزوجت بنـات البيت السيء السمعة واحدة بعد أخرى رغم ما سـمع مرارا وتكرارا بأنهن بنـات لم يخلقن للزواج ولن يسعى الى الزواج منهن أحد ٠ وكلما جاءه نبـأ عن توفيقهن فى زواجهن ذهل واختلت موازينه ٠٠ !

ومضى الى بيته بعد ميعاد انتهاء العمل الرسمى فتغدى ونام ليستعد لسهرة فى الأوبرا دعى اليها هو وزوجته وبناته الثلاث · وكان الداعى زميلا لكبرى بناته الموظفة فى ادارة الترجمة بالوزارة وقد قبل الدعوة رغم أن الداعى لم يرتبط بكريمته بأى ارتباط بعد ! · وعند المساء خلا الى نفسه فى حجرة مكتبه على حين نشطت الزوجة والبنات للاستعداد لسهرة الباليه المنتظرة ، عما قليل يتبدين فى صورة كاملة من الزينة والأناقة ثم يتقدمنه تحت الأضواء والأنظار ترمقهن باعجاب ! · ولم يكن غريبا أن يستخرج دفتر مذكراته القديم من الدرج الخاص بالأوراق الثمينة كعقد ملكية الأرض وبوليصة التأمين · وكان اعتاد على عهد المراهقة ـ وهو عهد كان يحلم فيه بعرش الزجل ! ـ أن يسجل أحداثه العاطفية والاجتماعية يوما بعد يوم · وفرّ صفحاته ليرجع الى عام ١٩٢٥ وما حواليه حتى رقم التليفون وجده · وبدافع لم يعرف كنهه امتدت يده الى قرص التليفون فأدارت الرقم القديم · وجاءه صوت :

ـ آلو !

فسأله وهو يبتسم فى عبث :

ـ بيت حلاوة ؟

فأجاب الصوت بخشونة :

ـ لا يا سيدى ·· هنا محل الطمبلى لبيع الخيش ··

القهوة الخالية

(بيت سيىء السمعة)

قال محمد الرشيدى بنبرة أرعشها الحزن والانفعال :

ــ الى رحمة الله الرحيم ، الى جوار ربك الكريم يا زاهية، يا رفيقة عمرى ، الى رحمة الله ٠

وانتحب باكيا وهو ينحنى فوق الجثة المسجاة على الفراش ، معتمدا بيمناه على الوسادة من شدة الاعياء ، حتى رحمته الخادم العجوز فربتت على يده برقة ثم أخذته منهـا الى حجرة الجلوس فأسلم نفسه الى مقعد كبير وهو يتنهد بصوت مسموع ٠ ومد ساقيه وهو يتأوه ثم غمغم :

ــ أنا الآن وحدى ، بلا رفيق ، لم تركتنى يا زاهية ؟ ، وبعد عشرة أربعين عاما ! ، لم سبقتنى يا زاهية ؟

وعزته الخادم بعبارات محفوظة غير أن منظر شيخ فى التسعين وهو يبكى منظر محزن حقـا ، وقد التمعت أخاديد خديه وحفر أنفـه بالدموع ، فغـادرت الخادم الحجرة وهى تجهش فى البكاء ٠ وأغمض عينيه اللتين لم يبق فى أشفارهما الا آحاد من الرموش وراح يقول :

ــ منذ أربعين عاما تزوجتك وأنت فى العشرين ، ربيتك على يدى ، وكنا سعداء جدا برغم فارق العمر ، وكنت خير رفيق ، يا طيبة يا انسانة ، فالى رحمة الله ٠٠

وكان ذا صحة جيدة اذا قيس بعمـره ، طويلا نحيلا ، واختفى أديم وجهه تماما تحت التجاعيد والأخاديد ، وبرزت عظامه وتحددت كأنها جمجمة ، وفى عينيه غارت نظرة تحت غشاوة باهتة لا تنعكس عليها مرئيـات هـذا العالم ٠ وأم الجنـازة خـلق كثيرون لم يكن فيهم واحـد من أصحابه أو

معارفه · جاءوا يعزون ابنه أو اكراما لزوج ابنتــه الموظف باحدى السفارات فى الخارج أما هو فلم يبــق من أصحابه على قيد الحياة أحد · وجعل يستقبل الوجوه التى لا يعرفها ويتساءل أين رعيل المربين الأول ، أين الســاسة الحقيقيون على عهد مصطفى وفريد ؟ ! ·

وعندما انفض المأتم حوالى منتصف الليل ســأله ابنــه صابر :

ـ ماذا نويت أن تفعل يا أبى ؟

وقالت له زوجة ابنه :

ـ ولا يجوز أن تبقى هنا وحدك ··

أدرك الشيخ ما يقصدان فتشكى قائلا :

ـ كانت زاهية كل شىء لى ، كانت عقلى ويدى ··

فقال صابر :

ـ بيتى هو بيتك ، وستحل بحلولك بنا البركة ، وستجىء خادمتك مباركة لخدمتك ·

أجل لا يمــكن أن يقيم فى هـــذا المسكن وحده · ورغم ما يبدى ابنه وزوجته من شعور طيب فهو يؤمن بأنه ـ بانتقاله ـ سيفقد الكثير من حريته وســيادته ولكن ما الحيلة ؟ ! · وكان فى شبابه ورجولته وكهولته شخصا صلبا ، وما زال يحتفظ بوقاره ومهــابته ، وكم خرج من أجيـــال من المربين والشخصيات الفذة ، ولكن ما الحيــلة ؟ ! · وبطرف واجم شهد الرجل تصفية مســكنه · رأى أركانه وهى تتقوض كما رأى احتضار زوجتــه من قبل فلم يبقــوا الا على ملابســه وفراشه وصوان كتبه التى لم يعد يمد لها يدا وبعض التحف وصــور لأعضـــاء الأسرة ولبعض الرجال كمصطفى كامل ومحمد فريد والمويلحى وحافظ ابراهيم وعبد الحى حلمى · وغادر بيته الى مصر الجديدة فى سيارة ابنه ، وهنالك أعدت

حجرة لنومه وتأهبت مباركة العجوز لخدمته • وقال له ابنه :
ــ نحن جميعا رهن اشارتك ••

وابتسمت منيرة زوجة صابر ابتسامة ترحاب • روح طيبة حقا ولكنه لا بيت له ، ذلك كان الشعور الذى اجتاحه • وجلس على مقعده الكبير يبادلها النظرات فيما يشبه الحياء • وقال لنفسه لعله لو كانت سميرة ابنته فى مصر لوجد فى بيتها انسا ألصق بالقلب • وظهر توتو عند عتبة الباب • ردد عينيه بين أبويه ثم جرى حتى لبد بين ساقى والده • ونظر الى جده بتأمل فابتسم الشيخ قائلا :
ــ أهلا توتو •• تعال ••

ونادرا ما كان توتو يزور جده مع والده • وأحبه الشيخ كثيرا ولم يقتصد فى مداعبته كلما وسعه ذلك ولكن توتو كان حادا فى مداعباته ، فهو يحب الوثب على من يداعبه ويهدد عينيه وأنفه بأظافره فسرعان ما تجنبه الشيخ بلطف مؤثرا أن يحبه من بعيد • وأشار توتو الى طربوش جده الطويل وقال :
ــ راسك ! •

يعنى أن يخلع طربوشه ليرى صلعته البرتقالية المستطيلة المنحدرة التى جذبت انتباهه وتساؤله من أول نظرة ، ولما لم تتحقق رغبته راح يشير الى أخاديد الوجه وحفر الأنف وتتابعت أسئلته رغم محاولات والده لاسكاته • وقال الشيخ لنفسه ان الطفل العزيز لن يعتقه من المتاعب وأنه سيحتاج الى حماية ولكن أين زاهية ؟ • وساعته ومنشته وسجائره كيف يحفظها من عبثه ؟ • وحاول توتو أن يذهب الى جده ليحقق رغائبه بنفسه ولكن والده أمسك به ودعا خادمته فحملته الى الخارج وهو يصرخ محتجا • وقال صابر :

ـ انى أفرغ من عملى مســاء ثم أذهب الى النــادى أنا ومنيرة فهل تأتى معنا ؟

فقال الشيخ :

ـ لا تشغل نفسك بى ودع الأمور تجرى على طبيعتها ٠٠

وذهب صابر ومنيرة فرحب بالوحدة ليســتجم ، ولكن الوحدة ثقلت عليــه بأسرع مما تصور ٠ وألقى نظـرة غير مكترثة على الحجرة ثم طوقته الوحشة ٠ متى يعتــاد المكان الجديد ومتى يعتاد الحياة بلا زاهية ؟ ٠ أربعون عاما لم تخل يوما من زاهية ٠ منذ زفت اليه فى الحلمية ورقصت أمامهما الصرافية ٠ والبيت بفضل يدها ينعم بنظام ونظــافة وعبير بخور زكى ٠ وما قيمة رمضان والأعيــاد بدونها ؟ ٠ وخلت الجنازة من أجيال وأجيال من تلاميذه فهــل لم يعــد يذكره أحد ؟ ! ٠

ولم يكن كذلك حال الأصــدقاء الذين ذهبــوا ٠ ولكنهم ذهبوا وكأنمــا يراعم فردا فردا كيوم احتشــدت بهم جنــازة مصطفى كامل ٠ ورغم أنه لم يعــرف الأمراض الخطيرة قط فقــد امتحنت المسكينة بالدنج والتيفــود والأنفلونزا وأخيرا ماتت بالقلب ، وتركته متعلقا بالحياة كما كان دائما ٠ وقام الى نافذة فرأى منها بستانا كبيرا يتوسط مربعا من العمارات مكان الجــامع الكبير الذى كان يطالعــه من نافــذة حجرته بالمنيرة ٠ ولفحته نسمة هواء جافة دافئة ٠ وعجب للصمت المريح ولكنه أكد له وحدته ٠ ويوم احتــل الانجليز القاهرة ظفر بجواد ضـــال ولكن والده خشى العــاقبة فضربه ومضى بالجواد ليلا الى الخليج ثم أطلقه وكانت المدينة ترتجف من الخوف والحزن ٠ ورجع الى مجلسه فرأى عند أسفل المقعد قطة صغيرة ٠ بيضاء ناصعة البيــاض غزيرة الشــعر وفى جبينها خصلة ســوداء فآنس فى نظــرة عينيهــا الرماديتين

استعدادا للتفاهم · وزاهية طالما عطفت على القطط · وارتاح الى نظرتها ثم تابعها وهى تدور حول رجل المقعد وربت على ظهرها فتمسحت بقدمه وعند ذاك ابتسم · ومسح على ظهرها فاستجابت لراحته وخفق ظهرها صعودا وهبوطا فبشر ذلك بمودة · وابتسم مرة أخرى عن أنياب بانت أصولها الطحلبية وشملت القطة حركة متموجة من المرح · وتزحزح قليلا الى اليسار ليوسع لها مكانا ولكن صوت توتو المتهدج بالجرى ارتفع وهو يقتحم الحجرة صائحا :

ـ قطتى ··

فقال الشيخ مسلما :

ـ ها هى قطتك ··

وسأله متوددا عن اسمها فقال بحدة :

ـ نرجس ·

وقبض بشدة على قفاها ثم جرى بها خارجا والشيخ يهتف به مستعطفا :

ـ حاسب ·· حاسب ··

واذا به قد ذهل ! · عجب ماذا حصل ؟ · وتبين أن شيئا أصاب جبينه · وقطب مستاء فارتفعت ضحكة توتو عند الباب وهو يلتقط الكرة الصغيرة المرتدة · وتحسس الشيخ النظارة ليطمئن عليها ثم نادى مباركة فجاءت بسرعة وحملت الطفل مبتعدة به قبل أن يعيد رمى الكرة · وقال الشيخ :

ـ هذا الطفل العزيز مزعج وقاس ، من للقطة المسكينة !

منذ خمس سنوات فقدت سميرة ابنته طفلا فى سن توتو فعزاها باكيا وهو يقول :

ـ كان الأجدر أن أموت أنا ··

وخيل اليه وهو فى المأتم أن الأعين ترمق شيخوخته

بدهشة مستحضرة التناقض الصارخ بين بقـائه هو وذهاب حفيده فى الثالثة · وليلتها قال لزاهية ممتعضا :

ـ طول العمر لعنة ··

ولكن ما أرقها اذ قالت له « كلنـا فداك ·· أنت الخير والبركة » ·

وعند الأصيل عاد صابر من عمله فقال لأبيه :

ـ ما دمت لا تريد أن تذهب معنا الى النادى فاختر مقهى فى مصر الجديدة ، مقاهى مدينتنا جميلة وقريبة من البيت ··

قد يكون هذا هو المعقول ولكنه يحب قهوة متاتيا · انها مجلســـه المختار طيلة دهــر طويل · ومضى الى محطـــة الأوتوبيس ، وهو يسير اذا سار وئيــدا ولكن بقامة مرتفعة ويستعمل العصا ولكنه لا يتوكأ عليها ، وكثيرون هم الذين يتطلعون اليه فى دهشة مقــرونة باعجاب · واتخذ مجلســه بالقهوة تحت البواكى وهو يقول لنفسه فيما يشبه المداعبة : « ما بال القهوة خالية ! » · ولم تكن القهوة خالية · ولا كان بها من الترابيزات الخالية الا عدد محدود · ولكنها خلت من الأصحاب والمعارف · ومن عادته أن يرنو الى الكراسى التى حملت قديما الأعزاء الراحلين فيتخيل وجوههم وحركاتهم · والمناقشات حول أخبــار المقطم ، ومباريات النرد الحاميــة ، والسياسة · قضى الله أن يشيعهم واحدا بعد آخر وأن يبكيهم جميعا · وجاء زمن لم يجد فيه من رفيق سوى واحد هو على باشا مهران · وهذا الكرسى كان مجلسه · يجلس عليه قصيرا نحيلا مكوما فوق عصـــاه وحافة طربوشـه تماس حاجبيه الأشيبين النافرين ، ويرمقه بنظرة هشة شبه دامعة من نظارة كحلية ثم يتساءل :

ـ من منا يا ترى سيسبق صاحبه ؟

ثم يغرق فى الضحك ، وكانت يداه قد استوطنتهما رعشة

الكبر رغم أنه كان يصغره بعـامين · ولما مات فى الخامسة والثمانين حزن عليه طويلا ، ومن بعده خلت الدنيـا وخلت القهوة · وها هى العتبة الخضراء تدور كعادتها أمام عينيه الكليلتين ولكنها ميدان جديد · وماتاتيا نفسهـا لم يبـق من أصلها الا الموضع ، ولكن أين صاحبها الرومى الودود ، وأين الندل ذو الشـوارب البلقانية ؟ · والكراسى المتينة البنيـان والترابيزات الرخاميـة الناصعة والمرايا المصـقولة والبوفيه العامر بالمشروبات والنراجيل أين ؟ · وفى ليلة شم النسـيم من عام ١٩٣٠ أحيل الى المعاش · وسـهر ليلتها فى مسرح الأزبكية هو ومجموعة من الأصـدقاء حيث جلجل صـوت الطرب ، أما النهار فقد قضوه فى القنـاطر الخيرية محتفلين بوداعه وألقى الشيخ ابراهيم زناتى قصيدة · وليلتهـا شرب من الكونياك حتى ثمل وهو يطرب للصـوت المنشد « يا عشرة الماضى الجميل » ولما نام آخر الليل حلم بأنه يلعب فى الجنة · ودعا له ابراهيم زنانى مفتش اللغـة العـربية بمائة عام من العمر المديد فى قصيدته · والدعوة يبدو أنها ستستجاب · ولكن القهوة خالية · والشيخ زناتى نفسه رحل وهو ما يزال فى الخدمة · واقترب النادل منه ليأخذ الصينية ولكنه تراجع كالمعتذر فذكره بفنجال القهوة المنسى الذى لم يمسه ·

وعنـدما رجع الى البيت وجـده راقـدا فى السكون ، وصاحبه لم يعد من النادى · ووجد عشاءه من الزبادى على خوان · وغير ملابسه فى بطء وجهـد ودون معـاونة أحد · وجلس لتناول العشاء فتـذكر نرجس · لو تشـاركه القطـة الصغيرة عشاءه ؟ ! · ما ألطف أن يوثق علاقتـه بها فهى ستكون أنيسه الحقيقى فى هذا البيت المشغول بنفسه · لعلها فى موضع ما بالصالة · ومال نحو البـاب قليـلا وهتف : « بس ·· بس » · وقام فمضى الى الكارج وصاح : « نرجس،



واتخذ مجلسه بالقهوة تحت البواكى وهو يقول لنفسه فيما يشبه المداعبة : « ما بال القهوة خالية ! »

بس ٠٠ بس ٠٠ ، فجاءه النواء من وراء الباب التالى لحجرته حيث ينام توتو وخادمته ٠ وتفكر قليلا ثم اقترب من البـاب ففتحه برفق فمرقت منه نرجس رافعة ذيلها الدسم كالعلم ٠

ارتاح الشيخ فعاد نحو حجرته وهى تتبعه ولكن صرخة توتو دوت غاضبة ٠ وقال الشيخ لنفسه باسما ان الصغير لم يكن استغرق فى النوم ٠ وجاء توتو جريا فانقض على القطة ثم قبض على قفاها بشدة ٠ وربت جده على رأسه قائلا برقة :

ـ خفف يدك يا توتو ٠٠

ولكن الآخر ضـاعف ضغطه حتى خيـل الى الشيخ أن نرجس ستختنق فقال برجاء :

ـ اذهب أنت وساحملها الى فراشك ٠٠

ولكن توتو لم يسمع له فمال الشيخ نحوه وخلصـها من يده وهو يقول :

ـ سأطعمها ثم أعيدها اليك ٠٠

اندفع توتو غاضبا ثم دفع جده فى ركبته ٠ ترنح الشيخ ، ثم تراجع خطوة مضطربة ، ثم تهاوى فكاد يسقط على الأرض لولا أن تلقاه الجدار ، والقطة لم تزل فوق ساعده ٠ ولبث فى هذا الوضع المائل ، لم يستطع أن يقيم نفسـه ، ودار رأسـه قليلا ، وضغط على الأرض بقدمه وعلى الجدار بكتفه لينهض ولكنه عجز ، وزحفت القطة فوق سـاعده حتى استقرت على كتفه المرتفع ، ورغم دوار رأسه الخفيف أدرك مدى الخطـر الذى يتهدد عظامه بالكسر ٠ وصـاح بما تبقى لديه من قوة « يا مباركة » ٠ وكان توتو يصرخ وينذر توثبه بهجمة جديدة ٠ ويئس الشيخ من انقاذ نفسه ٠ ازداد خورا ولم يستطع تكرير النداء ٠ وتحفز توتو للوثوب الى ملاذ القطة فاندفع بكل قوته ولكن يد خادمتـه أحاطت بوسطه وقد اندفعت من الحجـرة بعينين ذاهلتين من أثر النوم ٠ ثم جاءت مباركة أخيرا بعد

أن أيقظهـــا الزياط فجرت نحو ســـيدها مستعيذة بالله ٠ واحتضـــنته من خلف وأقامتـــه برفق وهو يتـــأوه حتى وقف كالتمثال دون حراك على حين وثبت نرجس الى الأرض وفرت الى حجرته ٠ وبصعوبة شديدة رجع الشيخ الى مقعده الكبير معتمدا على ذراع مباركة ٠ ومضت فترة وهو صامت والمرأة لا تكف عن السؤال عن صحته ٠ وأشار لها بيده يطمئنها ، ثم أسند رأسه الى ظهر الكرسى ومد ساقيه متنهدا ٠ وأغمض عينيه ليستجم ٠

وفى الحال تذكر حفـــلة تأبين راسخة فى الروح ٠ رجع من المنصة بعد أن ألقى كلمة طيبة ثم جلس الى جانب صديقه ، ومال الصديق نحوه وسكب فى أذنه ثناء جميلا ٠ لكن من كان ذلك الصديق ؟ ٠ آه ٠٠ انه واثق من أنه سيتذكره ، وكم أنه مذهل أنه نسيه ٠ قال كلمة لا يمكن أن تنسى كذلك ٠ ســوف يتذكرها حتما ٠ ودوى التصـــفيق والهتـــاف ، وارتفع نواء القطط ، وبكت كل عين حتى الأطفال ترامى صراخها ٠ ومال الصـــــديق نحوه مرة أخرى وقال ٠ وتأكد من أنه ســـــيظفر بالذكريات جميعا ٠

وسرعان ما استغرق فى النوم ٠٠


كلمة في السرّ

فؤاد أبو كبير موظف قديم أوشك أن يستوفى مدة خدمته ، وهو مثل حسن للموظف ، مثال فى اتزانه فهو محترم حقا ، ودءوب على العمل فهو حمار شغل ، ولم تزايله هذه الصفة يوما منذ التحق بالخدمة بالكفاءة وهو ابن عشرين · وقد انطبع بالروتين حتى تغلغل فى روحه وسرى فى سلوكه حتى السلوك غير الرسمى فهو يرجع الى بيته كل يوم حوالى الثالثة ، يتغدى وينام حتى الخامسة ، ثم يمضى الى القهوة حوالى السادسة فيدخن النارجيلة ويتكلم فى الكادر والسياسة ، ثم يلعب النرد ، وأخيرا يعود الى بيته عند الحادية عشرة فيتعشى عشاء خفيفا ويصلى ثم ينام ·

وهو زوج منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما ، وزوجه التى تزوجها عن قرابة وحب تقاربه فى السن ، وقد أنجب منها خمس بنات وولدا واحدا تخرج منذ أعوام طبيبا ، والجميع متمتعون بنعمة الحياة الزوجية الموفقة ·

ولتوفيقه فى الوظيفة اذ حاز رضى الرؤساء وبلغ الدرجة الثالثة الادارية ، فضلا عن توفيقه فى الذرية ، كان يخاف العين ، ويتقى شرها بالدعاء والصلاة ، ولكنه كان بصفة عامة رجلا سعيدا ، وحتى ما أصابه من ضغط لم يستطع أن يفسد عليه حياته وان فرض عليه مضايقات فى العلاج وحرمانا من بعض الأطعمة الشهية ·

وذات يوم شعر بنشاط غريب طارىء · نشاط غريب كأيام زمان · رباه ·· نشاط غريب انقطع العهد به من سنين ، كأيام زمان تماما ، فما الذى حدث ؟ ! · وابتسم الرجل وهو يهز رأسه ، ابتسم عن طاقم نضيد وهز رأسا أبيض ناصعا ،

وعابثه النشـــاط فى أويقات متفرقة وبخاصة عنـد اليقظة الباكرة ، واذن فهى وثبـة حقيقية لا وهم ، وابتســم الرجل وأوشك أن يضحك عاليا · ولم تستطع خبرته الحكومية أن تمده برأى فى المسألة ، وقال لنفسه ان هذا أمر غير معقول ، وغير مصدق ، ألم ينقض العمر ؟ !

ونتيجة لذلك وجد نفسه تتابع الموظفات باهتمام لم يؤثر عنها من قبل · نظرة جديدة غير نظرة الأبوة السابقة ، وكأنه كان يراهن لأول مرة ، وخلال أسبوع رأى فيهن ما لم ير طيلة عام أو أعوام ، ومجرد مرور احداهن فى مجال بصره أصبح كافيا لقلقلة حواسه وزلزلة قلبه فراح يقول لنفسه فى ذهول : « اللهم لطفك ورحمتك ، ماذا جرى ؟ ! » ·

وخطر له وهو متربع على الكنبة قبـل النوم أن يتنـاول زوجته بنظرة · كانت الولية تستمع الى الراديو بغير اهتمام ، وجسمها مدفون فى جلبـاب بيتى فضفاض ، ومنديل رأســها معقود باهمال سمح لخصلات بيضــاء مشعثة أن تبرز فوق الحاجب والأذن بصورة تستحق الرثاء ، وفى عينيها استكنت نظرة خاملة لا تنشد الا السلامة ، ووشى شدقاها بالفراغ ، الى أن الآلام الروماتزمية المتقطعة قد طبعـت على وجههـــا علامات ثابتة كالذعر · رمقها بيأس ثم رفع عينيه الى صورة تذكارية من شهر العسل ، صورة نصفية لهما ملونة ، تمثلهما جنبا الى جنب فى احتشــام محبب لا كعرسان هــذه الأيام ، آه ·· فوزية كانت جميلة حقا ، وكم كان هو بدينا فخما ! ·

وقال لها دون تمهيد وبلهجة لم تخل من احتجاج :

ـ قلت لك مائة مرة ركبى طاقم أسنان !

وضحت فى عينيها دهشة تنبىء بالحقيقة التى لا يجهلها وهى أنه لم يطلب منهـــا ذلك ولا مرة واحــدة ، وغمغمت والدهشة لم تفارقها :

ـ طاقم أسنان !

وحقيقة اخرى لا يجهلهـا أيضـا وهى أن الأيام قصرت علاقتهما على الزمالة والصداقة منذ بضع سنين فكيف يمكن لهذا الوضع أن يتغـير فجاة ؟ ! • وكانت تجلس على نفس الكنبة على بعد ذراع منه ، وفيما بين أويقات الاستماع الى الراديو تتلو آية الكرسى بصوت خافت وبعض الصور القصار التى تقيم بها صلواتها الخمس • ولفه احساس بالغربة ولكن قلقه الطارىء العجيب كان أقوى من الغربة فقال :

ـ قلت ذلك مائة مرة ! ، ومالك تهملين نفسك الى هـذه الدرجة !

فأوقفت التلاوة لتقول له :

ـ أمرك عجيب ••

يا له من موقف ! • لعنـة الله على المـرض • وعلى الجنون • لكنك تسب الجنون بلسانك فقط • هـذا واضح • يا لها من مهزلة • ومد ذراعه على مسند الكنبة الى ما وراء ظهرها ، ثم ربت على قفاها ضاحكا فهزت رأسها متمتمة :

ـ أمرك عجيب ••

فهمس بعد جهد غير يسير :

ـ كأيام زمان !

فانكمشت المـرأة ، تزحزحت حتى طرف الكنبـة وهى تغمغم :

ـ يا عيب الشوم !

ولما رآها مقوسة على خجلها أدرك مدى سخفه • وواصل اكتشافاته فى الوزارة والطريق والقهوة حتى احترقت عيناه . وارتدت الأعوام الماضية بحرارتها الاسـتوائية • وهام على وجهه فى مظان الهوى فى الحدائق وحفلات السينما الصباحية وراح يقول لنفسه : « ما أعجب هذا •• وما أبهجه » • وشعر

بأنه مطارد وأنه يوشك أن يضبط متلبسا ، وأنه لا يستطيع أن ينسى عمــرا كاملا من الوقار والاستقامة وحســن السمعة ٠ ولكنه لم يتوقف ، بل ولم يعد يقنع بالمغامرات النظرية ٠ وذكر أبناءه وأحفاده ، وتوهم أى فضـــيحة كان يرعش أطــرافه ويثلجها ٠ وهل يمكن أن تعالج الأمور بالصبر ؟ ٠ وما جدوى الصــبر وهو من صلب فلاح تزوج فى الحلقة الســابعة ! ٠ وما جدواه وهو يشم أريج الحب فى كل مكان ! ٠ وما عسى أن يفعل ؟ ٠ وبعد تردد ثقيــل فاتح أحد أقرانه فى القهــوة بمتاعبه ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ ٠ ضحك الرجل وقال :

ــ الظاهر انك بحكم العمر انقلبت للايمان بالخرافات !

فقال بحدة :

ــ ولكن ما أخبرتك به حقيقة لا شك فيها !

فرفع الرجل يديه بالدعاء قائلا :

ــ اللهم بارك فى عقل فؤاد أبو كبير !

كلا لا فائدة ترجى من هؤلاء الفانين ! ٠ وعاد يتســاءل عما عسى أن يفعل ؟ ٠ ست آمنة ٠ وثب الاســم من الظلمات كالشهاب ٠ ست آمنة جارته القديمة بروض الفرج قبــل أن ينتقل بأسرته الى المسكن الحالى بالســيدة ٠ وهى صــاحبة الشــقة التحتانية ، أرمــلة ، وقد حاولت كثيرا أن تصــادق زوجته ولكن فوزية لم تستخف ظلها ٠ ولعلها فى الأربعين أو فوق ذلك بقليل ، ولا تخلو من وسامة ، أما تأنقها المبالغ فيه فيقطع بحبها الحياة ٠ !وفى عهد الجوار سنحت بينهما وقائع ولكنه حسمها باستقامته فوئدت ولم يعلم بهــا أحد ٠ كانت تحييه عند خروجه اذا تصادف وجودها فى النافذة وما أكثر المصــادفات ٠ وأكثر من مرة وهو راجع كان يراها من خلال الباب المفتوح وهى تخطر فى قميص بيتى ! ٠ ورغم ارتياحه الباطنى الذى كان باعثه الزهو لا الرغبة فانه لم يشجعها قط

زاهدا ومشفقا فى الوقت نفسه من فضيحة تهز مكانته المرموقة فى أسرته وفى العمارة • ومرة تعرضت له أمام شقتها فحيته ثم قالت :

ـ تسمح دقيقة واحدة يا فؤاد أفندى ؟

وارتبك الرجل بشكل واضح فقالت :

ـ لدى مشكلة أود أن أعرضها عليك !

وقع فى لخمة دلت على ذهوله ثم قال بجهد :

ـ تفضلى بزيارتنا وستجديننى تحت أمرك •

ومن وقتها تجاهلته تجاهلا كاملا وكان ذلك قبيل انتقاله الى السيدة الذى مضى عليه ما يقارب العام • اليوم تدور أفكاره حول ست آمنة ، ويستعيد ذكرياتها بحرارة بلغت حد الهوس • انصهرت تلك الأفكار والذكريات فى رأسه وهو ماض الى روض الفرج • أجل بلغ مسكنه القديم فى الوقت الذى كان ينتظر فيه أن يكون فى القهوة • وضغط على جرس الباب وقلبه يغوص فى الأعماق • وكم ذهلت ست آمنة عندما رأته أمامها كآخر شىء كانت تتوقعه ••

ـ فؤاد أفندى !

حرك رأسه بالايجاب دون أن ينبس •

ـ خير ان شاء الله !

ثم تنحت عن الباب وهى تدعوه الى الدخول • وجد نفسه فى حجرة استقبال صغيرة معبقة بعبير ورد فى زهرية على قائم معدنى طويل فى الركن • وغابت عنه وقتا ثم عادت آخذة زينتها ملتفة فى روب أبيض يذكر بفستان العرس • ولم تقتصد فى اعلان اهتمامها بالزيارة مرددة « خير ان شاء الله » فطار من دماغه جميع ما أعده من قول ، ولكنه شعر بأنه مطالب بتفسير حضوره فقال :

ـ كنت مارا من هنا فقلت يجب أن أزور ست آمنة ! •



وكم ذهلت ست آمنة عنـدما رأته
أمامها كآخر شيء كانت تتوقعه ..

ابتسمت المـرأة وهى تتمتم « خطـوة عزيزة » ثم وهى تضحك :

ـ ولكنك لم تكن تحب زيارتنا ٠٠ ؟ !

فاحمر وجهه وقال كالمعتذر :

ـ الواقع أن الظروف ٠٠

وتوقف لا يدرى ماذا يقول ٠ ثم ابتسم ابتسامة دلت على انه يسترد توازنه وقال :

ـ قلت مرة ان لديك مشكلة ٠٠

فضحكت المرأة ضحكة عالية ٠ وتبـادلا نظرات باسـمة فواتته شجاعة عظيمة فنهض ليجلس الى جانبهـا على كنبة واحدة ٠ومد يده الى يدها ولكنها سحبتها برقة وهى تقول :

ـ الظاهر أنك لم تفهمنى على حقيقتى يا فؤاد أفندى ٠٠

لهجة جادة صدمت قلبه فانكمش ٠ وعادت تقول :

ـ لست كما تتصور ، أنت قلت لنفسك آمنة أرملة ، وقد دعتنى مرة الى شقتها ، لا بد أن تكون ٠٠٠

وهتف بحماس يغطى به فتوره وفشله :

ـ معاذ الله ٠٠ معاذ الله ٠٠

فحدجته بنظرة جريئة وسألته :

ـ اذن ماذا تريد ؟

آه ٠٠ لم يتوقع هذا ٠ خاب سعيك حقا ؟

ـ يجب أن تعلم أننى امرأة شريفة ، وتصرف بعـد ذلك كما يحلو لك !

رجع وهو يقول لنفسه ان الأمر ليس بالبساطة التى حلم بها ٠ ومع ذلك فقد شدت على يده وهى تودعه وأعربت له عن مشاعر طيبة جدا ؛ وقالت انها تنتظر زيارة أخرى بل وثالثة ورابعة ! ٠ واضـح جدا ما تريد ٠ وحن بكل قواه الى عبير الورد ثم اعترف بأنه فقد عقله ٠ ووجد فوزية تعانى أزمة من

أزمات مرضها فتضاعف همه • وتذكر الأبناء والأحفاد فتكدر لحد المرارة • وتوكد لديه أنه لن يستطيع مواصلة الحياة فى هذه الدوامة •

وفى خلال شهر من الزيارة الغريبة تزوج فؤاد أبو كبير من ست آمنة فى تكتم تام •

ولم يستطع بعد ذلك أن يواجه أسرته بالحقيقة فكتب الى ابنه الدكتور خطابا مسهبا أشبه بالاعتراف ، مؤكدا فيه أنه لن يتخلى عن واجباته نحو أمه • وأقام فى مسكن آمنة فى بيته القديم • وتوقع أن يتصل به ابنه أو احدى بنـاته ولكن شيئا من هذا لم يحدث حتى خيل اليه أنه انتقـل الى عالم آخر ، وجعل يتخيـل وقع المفاجأة فى أسرته بذهول ، ولكنه طرح كل شىء جانبا وسلم نفسه للحب •

وبعد مرور ستة أشهر كتب فؤاد أبو كبير خطابا آخر الى ابنـه الدكتور • أخبره فيه بأنه مريض ودعاه الى مقابلته • وهال الدكتور أن يجد أباه طريح الفـراش • هيكلا عظميـا مكسوا بجلد ذابل ، ونظرة الموت تطـل من محجريه • هاله المنظر حقا فبهت ، ولما رآه أبوه اغرورقت عيناه فانكب الشاب على يده المعروقة التى ضرب لونها الى السواد يقبلها ويبكى• وجلست آمنة صامتة طيلة العناق والبكاء ثم قالت :

ــ زاره ثلاثة أطباء !

ولكن الرجل قال :

ــ أريد أن أرقد هناك ••

فقالت المرأة وهى تحول وجهها جانبا :

ــ علم الله أنى لم أقصر فى خدمته ولكن المهم هو راحته فاذا شاء ذهب ••

عاد فؤاد أبو كبير الى فراشه القديم هيكلا عظميا مكسوا بجلد ذابل ونظرة الموت تطل من محجريه • وأحاطت به أسرته

ولكنه استغرق فى النـوم اكثر الوقت . وفى لحظات اليقظة كان ينقل بينهم عينيه صامتا أو ينادى اسما بلسـان ثقيـل وصوت شخص آخر . ولم يتحسن ولكنـه دخل طورا جديدا يتسم بالغرابة . ومرة فتح عينيه وكان ابنه جالسـا بجوار الفراش وحده فتساءل باهتمام :

ـ ماذا حدث ؟

فسأله الشاب عن حاله فتأوه قائلا :

ـ الظاهر أنى ضعيف جدا .. ولكنى لا أدرى ..

فسأله بقلق :

ـ لا تدرى ماذا ؟

ـ ماذا ؟ ! ، نعم ماذا ؟ ، ولكن لم ؟ ، هذه هى النقطة ..

وساد الصمت مليا ثم استدرك قائلا :

ـ لذلك لا أستطيع أن أقطع برأى ، شقى أم سعيد ؟ !

وأشار اليه كأنما سيفضى اليه بسر لا يريد أن يطلع عليه أحد فقرب الشاب وجهه منه فقال :

ـ عرفت كل شىء ، كل شىء ، حتى الهدف الحقيقى ..

ثم بدرجة أدنى من الانخفاض :

ـ ورغم التصميم على عدم النسـيان نسيت ، حقـائق مذهلة ولكن ما هى ؟ !

وألح ابنه عليه أن يستريح ولكنه عاد يقول :

ـ حقائق هائلة مذهلة ، ولكنها ضاعت جميعا ...

وأغمض عينيه اعياء ثم غمغم :

ـ كم أود أن أتذكر ولو قليلا كى أموت مطمئنا ... !


الخوف

فى تلك الفترة من أوائل القــرن كان أهل الفرغانة أتعس الأحياء · كانت عطفتهم تقع بين حارة دعبس من ناحية وحارة الحلوجى من ناحيـــة أخرى ، وكانت الحارتان متنافســتين متعاديتين لا يهدأ بينهما نزاع ، وقد عرف سكانهما بالشراسة والغلظة والعدوان ، وتسليتهم الأولى كانت العبث بالقوانين والناس ·

وعلى عهـد جعران فتوة الحلوجى والأعور فتوة دعبس اشتدت بين الحارتين العداوة وسالت الدماء وتعدد نشــوب المعارك فى الطرقات والجبل ·

وتساءل أهــل الفرغانة فى جزع وما ذنبنا ونحن لا من دعبس ولا من الحلوجى ؟ ! · ذلك أنه ما ان تنشب معركة فى أى مكان حتى يعصف بهم الذعــر فيتوارى كل بما يمــلك أو بنفسه وراء الأبواب ، ولم يكن من النادر أن يشتبك الخصمان فوق أرض الفرغانة نفسها ، وهناك ينعق غراب الخراب فتنقلب العربات وتتحطم السلاسل وينفجر الصوات ويصاب الأبرياء بلا حساب حتى أمست الحياة فى العطفة شرا لا يطاق وفاقت خسائرهم أصحاب النزاع أنفســهم وكره الحيــاة منهم حتى السعداء · ويوما استغاثوا برجال الدين فبــذل هؤلاء أطيب ما عندهم من مسعى حتى اتفق العدوان على تجنيب الفرغانة ويلات معــاركهم · وكان يوم عــظيم أرخت به الفـــرغانة لطمأنينتها ، ولكن أية طمأنينة ؟ ·· لقــد كلفتهم ما يطيقون وما لا يطيقون من حســن السلوك وطيب المجاملة والحرص على الحياد فى المعاملة حتى ضاعت فى ذلك أموال وابتذلت كرامات · وكلما فاض بهم الهم فأوشكوا على التمرد ذكروا

الزمان الأول بمآسيه فازدردوا الألم صـابرين ، ولكنهم رغم ذلك كله نعموا بفترة سلام نسبى لم يعرفوها من قبل ·

حتى نزلت الى الحارة نعيمة بنت عم الليثى بياع الكبدة .

فعندما ضعف بصر العجوز حتى لم يعد يفرق بين النكلة والمليم اصطحب معه نعيمـة لتعاونه فى عمـله · نزلت الى العطفة وهى فى مطلع سن الزواج · وتصـدت للمعاملة فى جلباب غطاها من العنق الى الكعبين ولكنه وشى بقوام معتدل ونمت التصاقاته العفوية بأجزاء الجسد عن بضاضة ، الى امتياز الوجه باستدارة ريانة فى لون الدوم الرائق ، وعينين لوزيتين فى لون الشـهد المصـفى تعبث فى نظرتهما حيوية شباب مستجيبة فى سذاجة للاعجاب · ورمقتها عيون الشباب باهتمام ، وانجذبوا الى فرن الكبدة القائمة فوق عربة اليد كما ينجذب الذباب الى السكر · وما لبث أن قـرأ عم الليثى العجوز الفاتحة مع شاب بياع بطاطة يدعى الحملى · وانتظر الناس الأفراح ولكنهم عندما اجتمعوا مساء يوم بقهوة التوتة ــ وقد سميت كذلك لوقوعها تحت أفرع شجرة توت ــ قرءوا الكدر واضحا فى وجه الرجل الذابل · وسأله صاحب القهوة:

ــ ما لك يا ليثى كفى الله الشر ؟

فأجاب العجوز متنهدا :

ــ المنحوس يجد العظم فى الكبدة !

تطلعت اليـــه الرءوس من فوق الجوز وأقداح القـرفة والشاى فقال باقتضاب ذى معنى :

ــ نعيمة ·· !

ــ ما لها ؟ ·· حصل من الحملى عيب ؟

فهز الرجل رأسه المعمم بلاسة منقطة وقال :

ــ لا دخل للحمـلى فى همى ولكن قابلنى الأعـور فتوة دعبس بلطف غريب ثم قال لى إنه يطلب القرب فى نعيمة !

تجلى الاهتمام فى الأعين مشوبا بانزعاج ثم سأله سائق كارو :

ـ وماذا قلت له ؟

ـ ارتبكت ·· وبكل صعوبة قلت ان فاتحتها مقروءة مع الحملى فصاح : الأعور يجيئك بنفسه تقول له الحملي ؟ ! ، الحقيقة أنا انذعرت ··

ـ ثم ؟ !

فامتلأت غضون وجهه بالقرف وهو يقول :

ـ مددت يدى وأنا لا أدرى وقرأت معه الفاتحة !

ـ وفاتحة الحملى ؟

ـ قابلته ، واعترفت له بوكستى فحزن الولد الطيب ولكنه لم يتكلم ثم ذهب ··

تبادلوا النظرات فى صمت ارتفعت فى رحابه قرقرة الجوز فقرر صاحب القهوة أن يخفف عن العجوز الألم فقال بأريحية :

ـ لا لوم عليك ، أى واحد منا فى مكانك يتصرف كما تصرفت ، صل على الهادى وهون عليك !

فضرب العجوز حجره بقبضته هاتفا :

ـ ولكن المصيبة لم تقف عند هذا الحد !

فتساءل صاحب القهوة ذاهلا :

ـ وهل يوجد ما هو شر من ذلك ؟ !

ـ بعد فاتحة الأعور بساعتين وجدت جعران فتوة الحلوجى أمامى !

ـ يا ساتر يا رب ، وماذا أراد ؟

ـ نعيمة ايضا !

وضرب صاحب القهوة كفا بكف ثم رفع راسه الى سقف القهوة يخاطب السماء فقال العجوز :

ـ اعترض سبيلى كالقضاء والقـدر ، لم ادر ماذا اقول ولا كيف أتصرف ، ثم اضطررت أن أعترف له بفاتحة الأعور !
ـ يا أرض احفظى ما عليك ..
ـ قال لى يا مخرف .. يا أعمـى .. اقـول لك جمران تقول لى الأعور ؟ ! . الحقيقة انا انذعرت ... ومددت يدى وأنا لا أدرى وقرأت الفاتحة !
ـ وفاتحة الأعور ؟
فقال العجوز فى انهيار تام :
ـ هذه هى المصيبة فأغيثونى ..
وسرعان ما أدركوا أن المصيبة انما هى مصيبة الفرغانة وأن الخراب عاد يهدد عطفتهم . وبحثوا جميعا عن حل حتى قال مقرىء أعمى :
ـ لا يمكن أن تتزوج من الاثنين فهـذا محال ، ولا يمكن أن تتزوج من واحد دون الآخر فهذا هو الموت ..
ثم خلع العمـامة وحك رأسـه طويلا دون أن يوفق الى اقتراح حل فقال بياع الترمس :
ـ فلتتزوج سرا من الحملى ..
فقال كثيرون فى وقت واحد :
ـ ولا أبو زيد الهلالى نفسه يمكن أن يتزوجها الآن ..
ولما أجهد التفكير رءوسهم عبثا قال المقرىء :
ـ ادعوا معى : يا كريم الألطاف نجنا مما نخاف ..
وانتبه النـاس فى الصـباح على حركة غريبة فى وكالة مهجورة بالعطفة .. رأوا جمـاعة من البنـائين والنجارين والعمال يعملون بهمة فى الوكالة ليعدوها لحيـاة جديدة . وثبتت فوق المدخل لافتة كبيرة بعنـوان « نقطة الفرغانة » . وجاء عساكر وضابط فشغلوا المكان الجديد ، وتجمهر الناس أمام النقطة فقال لهم عسكرى عجوز :

ـ الحكمدارية غضبانة ‥ ولا بد أن تنتهى الفتونة !

وقال البعض أن الله قد استجاب لدعائهم ولكن الطمأنينة لم تدخل قلوبهم ٠ كل ما أحاط بهم أقنعهم بأن الفتونة أقوى من الحكومة ٠ لم يروا طوال حياتهم شرطيا يتحدى فتوة على حين أن الفتوات يتحدون القانون فى كل ساعة من نهار أو من ليل ٠ ولم ينس أحد كيف أن مأمور قسم الظاهر استعان يوما بجعـران فتـوة الحلوجى على تاجر مخدرات يونانى متمتع بالحماية الفرنسية عنـدما علم المأمور بأن اليونانى يهـدده بالقتل ٠ كيف يتأتى بعد ذلك لهذه النقطة البوليسية الصغيرة أن تقضى على الفتونة ؟ !

وخرج الضابط الشاب بنجمتيه المذهبتين وشريطه الأحمر وجلس على كرسى خيزران جنب مدخل النقطة ثم أرسل شرطيا الى قهـوة التوتة ليـأتى له بنارجيلة ٠ كان فى الخامسة والعشرين ٠ رشيق القوام غليظ القسمات ، ليس فيه ما يلفت النظر سـوى رأس كبير مفلفل الشعر كأنه كتلة صـوانية مصفحة ٠ نظر الى المتجمهرين وقال ببساطة غريبة :

ـ محسوبكم عثمان الجلالى ‥ لا تخافوا ‥ الحكومة معكم ‥

فترددوا اليه بابتسامة بلهاء ولم ينبس أحد بكلمة فعـاد يقول وهو يتناول خرطوم النارجيلة :

ـ عيب أن يعـيش الرجال كالنسـوان ، لا تمكنوا أحدا منكم ...

ولما لم يجد بادرة تشجيع واحدة قال بشىء من الحدة دل على نفاد صبره :

ـ ومن يتستر على مجرم سأعامله كمجرم ‥

ورمشـت أعينهم فى ارتباك ثم تفرقوا تبـاعا ، كل يلوذ بالسلامة ٠ وتجول الضابط فى الحى مستطلعا يتبعه بعض



قال لى يا مخرف ·· يا أعمى ·· أقول
لك جعـــران تقول لى الأعور ؟ ! ···

العساكر . طاف بدعبس كما طاف بالحلوجى . وطوقته الأبصار حيثما ذهب ، من النوافذ والمقاهى والأركان ارتطمت به نظرات التوجس والسخرية والحنق . ومر بالأعور فتجاهله ، ومر بجعران فتجاهله ثم أطلق ضحكة مجلجلة . ولبث عثمان هادئا طيلة الوقت ..

وأدرك الجميع أنه يستعرض هيبة الحكومة فعزم جعران على أن يدهمه بالرد الحاسم . وعند أصيل اليوم نفسه نشب عراك دام بين الحلوجى ودعبس فى خلاء الدراسة انتشرت انباؤه كاللهب فى وكالة خشب . وارتعد قلب الليثى الضعيف وسابت مفاصل الفرغانة . ونصح كثيرون الأب بأن يزوج ابنته من جعران فهو الأقوى على أى حال ، وخراب أهون من خراب .

وفى صباح اليوم التالى ظهر الضابط فى الحارة مرتديا جلبابا كسائر أهل العطفة ! . لم يصدق الناس أعينهم أول الأمر ولكن هويته تأكدت بصوته المعروف حين ارتفع قائلا :

ـ من كان يخشى البدلة فقد خلعتها والآن فليأت الى الفتوات ان كانوا حقا رجالا !

وابتعد عن النقطة وحده دون أن يسمح لعسكرى واحد بأن يتبعه ولكن تبعه الذاهلون من الرجال والنساء والصبية . ومضى الى الحلوجى بثبات لم يعرف عن أحد قبله حتى وقف أمام قهوة بندق حيث يوجد جعران بين صحبه وتابعيه . وقال عثمان بهدوء ولكن بوجه تتطاير من عبوسته النذر :

ـ أمس تحديتم الحكومة ، ها أنا بينكم وحدى أطالب بنصيبى من التحدى فالجدع منكم يتقدم ؟

ورقص شاب يدعى عنبة ببطنه فى وقاحة مزرية وهو على بعد أذرع من الضابط فمال هذا نحوه بغتة ولكمه فى بطنه لكمة شديدة سقط على أثرها بلا حراك . وذهل الجميع

لجرأة لم يتوقعها أحد على حين تراجع المتفرجون عن منطقة الزلازل · واستقرت الأبصـار على جعران وهو متربع على أريكة متلفعا بعبـاءته · ولأول مرة نظـر جعـران فى وجه الضابط عثمان ، ثم قال :

ـ أنت غدرت بصاحب لى بلا سبب ··

فصاح عثمان :

ـ استحق التأديب فأدبته وسيأتى دورك فى الحال ··

قال جعران بوجه مشوه بالندوب :

ـ أنت شباب ·· اذهب من أجل خاطر أهلك ·· !

فصاح عثمان :

ـ قم ان كنت رجلا وتقدم ···

ولم يتحرك جعران استهزاء فاقترب عثمان منه خطوات وسرعان ما تكتل الأعوان حول رجلهم وأمامه فقـال الضابط ساخرا :

ـ أرأيت أنك تختبىء وراء جدار من الأنذال ؟

وهتف جعران فى رجاله :

ـ ابعدوا ··

فتفرقوا بسرعة كالحمام فى أعقاب طلقة · ووثب جعران الى الأرض وكان ربعة مدمج الجسـد غليظ الرقبـة ، ثم تساءل :

ـ أين عساكركم ؟

فقال الضابط بحنق :

ـ سأضربكم بالطريقة التى تضربون بها الناس ··

وبمفاجأة صاعقة لطم جعران لطمة مهينة فصرخ هذا من الغضب وانقض عليـه فاشتبكا فى صراع مميت · تلك كانت لحظة مذهلة لم تنسها الحارة حتى اليوم · كالصراع الذى يروى عن الفيل والنمر · وكانت فاصلة فى تاريخها كله فتغير

مجراه الى الأبد · وقرأ كل فتوة من أعوان جعران بل ومن رجال الأعور مصيره فيها ·

وأراد جعران بكل وحشية فى دمه أن يعصر عثمان بين ذراعيه الحديديتين ولكن الضابط اعتمد على خفة الحركة واللكمات وهو فن لم يعرفه جعران أبدا · وأصابت اللكمات فكى عدوه وصدره وبطنه وأنفه المعوج فصرخ فى جنون الغضب :

ـ ملعون الجحيم ان لم أشرب من دمك !

وصاح الرجال الذين منعتهم تقاليدهم من الاشتراك فى المعركة :

ـ الموت ·· الموت ·· يا معلم ·

وارتفع الصياح والصراخ والصوات · وتجمهر الحى كله تحت القبو الفاصل بين الحلوجى والفرغانة · ووقفت نعيمة ترتجف من الانفعال ، قابضة على يد أبيها بعصبية ، وهى تصف له ما يقع مما عجزت عيناه الكليلتان عن رؤيته ·

ودار رأس جعران بالضربات المنهالة فبطؤت حركته وتراخت ذراعاه وشخصت عيناه الى الغيب ، وهتفت نعيمة بفرح :

ـ وقع الوحش على ركبتيه ··

أجل قد وقع · ثم سجد حتى انغرز رأسه فى التراب فتقوس كالدب ، ثم تهاوى على جنبه ·· وارتفعت عشرات النبابيت فهتف عثمان وهو من التعب فى نهاية :

ـ يا نسوان !

فتراجعوا خجلين وبعضهم يصيح فى وجهه :

ـ قريبا سيقرءون على روحك الفاتحة ·· !

وجعل الضابط يتجول فى الأحياء بجلبابه البلدى وأسطورته الغريبة تفرش له الرمل حيث ذهب. وكلما صادف فتوة كبيرا أو صغيرا اعترض سبيله وطالبه بأن يقول على مسمع من الناس «أنا

ـرة » فان تردد انقض عليه وسوى به الأرض ٠ وفى كل يوم كانت له معارك يخوضها متحديا ويخرج منها منتصرا ٠ ولم تمض أشهر قلائل حتى رحل الفتوات عن دعبس والحلوجى فلم يبق الا الشيوخ والنساء والصغار أو من غض الطـرف وتبرأ من الفتونة ٠ وشعر الضعفاء بأنهم يولدون من جديد ، ورمقوا الضابط بعين الاكبار والمحبة ٠

ومرض عم الليثى وفقد بصره تماما فقعـد فى فراشه ، وسرحت نعيمة بعربة الكبـدة وحدها ٠ وازدادت مع الأيام ملاحة ونضجا الى ما كسـبت من صـيت لتتنـافس جعران والأعور عليها فى الماضى القريب ٠ وبين لحظة وأخرى انتظرت العطفـة أن تزف الى عريس مناسب ٠ واذا بصـبى القهوة « حندس » يهمس ذات ليلة للساهرين :

ـ أرأيتم كيف ينظر الضابط الى نعيمة ؟

ولم يكن أحد لاحظ شيئا فعاد يقول :

ـ انه يأكلها بعينيه ٠٠

ومضى كل يتابع نعيمـة من زاويتـه ، انتبهوا الى أنهـا تعسكر بعربتهـا عنـد الجدار المقابل للنقطـة ٠ وأن عثمان يسترق اليها النظرات باهتمام لا يخفى على راء ٠ وأن عينيه ترتادان مواضع الحسن فى وجهها وجسـدها ٠ وأن نعيمة تلون نبراتها ـ عند النداء ـ بالدلال ٠ وفى لفتاتها وسكناتها عند المعاملة جرت مناورات الأنوثة المتصـدية لرجل يستحق الاهتمام ٠ وقال قائل منهم فى سهرة تالية :

ـ هو يأكلها وهى تود أن تؤكل ٠٠

فتمتم صاحب القهوة :

ـ وعم الليثى المسكين ؟ !

فقال بياع الترمس :

ـ من يدرى ؟ ! ٠٠ ربما طلب من العجوز القرب !

فقال المقرىء الأعمى :

ـ ليس شىء على الله بكثير ..

ولكن نطقت أعينهم بمدى يأسهم . وقال شاب :

ـ هو أقرى من جعران والأعور معا ويا ويل من يقول بم !

ووقفت نعيمة فى ضوء القمر وهى تراجع حساب اليوم وتغنى :

أنا قبـــله كنت هبـــله

ولكن تجنبها الشبان حبا فى الســلامة ، وقالوا لا تغنى بنت هكذا الا للعشق !

ولم تمض ليال حتى عاد حندس يقول :

ـ كل شىء وضح ، رأيتهما أمس عند خلاء شبرا !

فصاح به صاحب القهوة :

ـ اتق الله !

ـ الحمد لله ! ، كانت واقفة أمام العــربة وكان الضابط يأكل الكبدة كالوحش ..

فقال المقرىء :

ـ شىء طبيعى ! كما يحدث للجميع !

فهتف حندس :

ـ ولكن عند خلاء شبرا ، ألا تسمع يا سيدنا ؟ ، وترحمت على عم الليثى ..

ونفذ الحزن الى الأعماق . ثم قال صاحب القهوة :

ـ أبوها عاجز ، ولكنه شرف الحارة كلها !

فقال بياع الترمس :

ـ الحارة أعجز من أن تدافع عن شرفها .

وتجهمت الوجوه بالخزى ، وعجبوا كيف يجىء ذلك من الرجل الذى وهبهم السلام ، ولم يذوقوا للزنجبيل ولا للتبغ طعما . وتساءل شاب :

ـ والعمل ؟

فقال المقرىء الأعمى :

ـ قل « أنا مرة » !

وانتبهت نعيمة الى الصمت الذى يطوقهـا والازدراء ، وجعلت تتودد الى هذا وذاك لتختبر شكوكها فارتطمت بجدار من الحنق · ولم تخش اعتـداء عليها وفتوة الفتـوات قائم بمجلسه أمام النقطة ولكنهـا عانت وحدة غريبـة · ورفعت رأسها فى استكبار ولكن نظـرة عينيهـا العسليتين خلت من الروح كورقة ذابلة · ولأقل احتكاك عابر كانت تنفجر غاضبة وتمسك بالتلابيب · وتسب وتلعن وتصيح فى وجه ضحيتها « أنا أشرف من أمك » · وتربع الضابط على الكرسى الخيزران يدخن النارجيلة ويمد ساقيه حتى منتصف الطريق وقد امتلأ جسمه وانتفخ كرشه وتجلت فى عينيـه نظرة متعالية ولكن خمد حماسه حتى بدا أن نعيمة نفسها لم تعد توقظ مشاعره ، والذين لم ينسوا فضله رغم كل شىء تنهدوا قائلين :

ـ المكتوب ·· مكتوب !

ولم تعد نعيمة تمكث فى العطفة الا أقصر وقت ممكن ثم تسرح فى الأحياء ولا تعود الا مع الليل · ولأنهـا ممتعضة دائما مكفهـرة ومتوثبة للشجار دائمـا فقـد قست ملامحها وبردت نظرتها وطبعت بطابع الجفـاف فركضت الشيخوخة نحوها بلا رحمة ··

وحتى سحرها الذى أطاح برأس الضابط قد بطل أو هذا ما بدا للأعين المستطلعة فتهامست به أركان التوتة ··

وفى لحظات الصـمت ترتفع قرقرة النارجيلة فى العطفة الخابية الضوء كسلسلة من الضحكات الساخرة ···



الرمـــاد

حسن السماوى شخص يثير الحنق · ولا يشذ عن هذا الرأى فيه أحد فى ادارة الحسابات بشركتنا · وهو قصير القامة كصبى ولكنه عريض الصدر كمصارع ، ولونه أسمر داكن مشوب بصفرة ، ومن عينيه الصغيرتين تطل نظرة غير مأمونة ، وفضلا عن ذلك فهو قريب المدير العام · وطبيعى أن نشعر بأنه عين علينا ، وألا نرتاح اليه لخشونة طبعه ، وأن نضيق به لتمتعه بكافة أنواع المكافآت التشجيعية بلا جدارة ، غير أنه يحظى بالمجاملات فى خير أحوالها · وكان مولعا بسحر الكاتبة على الآلة الكاتبة · ظريف جدا أن ترى جلفا وهو يحب · أن يجود وجهه المنفر بابتسامة رقيقة ، أن يرق صوته الغليظ وهو يهمس لها بكتابة ميزان الصرف اليومى ، وكنا نتابع ذلك باهتمام ما بعده اهتمام · ومع أننا تمنينا أن يعذبه الحب لعله يهذبه الا أننا أشفقنا من أن يفوز حقا بسحر ، الجميلة الرقيقة الواعدة بكل خير فى مجالى الأنوثة والعمل · وثمة لحظات لا يكون بينهما حديث مما يمليه العمل فيسترق اليها نظرات حمراء من فوق استمارات الصرف ، وقد يتصبب عرقا ، أو ينال منه الاعياء فيرتد عنها بنظرة خامدة · ويوما همس جارى فى أذنى بنبرة ذات مغزى :

ـ آه لو رأيت سحر وهى تبتسم خفية ؟

خطفت نظرة من سحر وهى عاكفة على الآلة الكاتبة وأصابعها المخضوبة الأظافر تعزف عليها بنشاط ، ثم قلت متأسفا :

ـ نعمة لا يستحقها !

فهز رأسه هنيا وقال :

ـ ليس هذا ، ولكنه برهان ! ٠

وعجبت ٠ برهان موظف جديد التحق بالخدمة منذ أسبوعين فقط ، شاب ممتاز حقا ، ولكن كيف أحرز هذا النجاح فى هذه الفترة القصيرة ؟ ! ٠ ورحت أراقبهما فى لحظات الفراغ حتى لمحت ابتسامة يتبادلانها ٠ لا شك فى معناها ٠ وتوقعت أحداثا ٠ وانتقل الخبر فى سرية تامة من شخص لآخر حتى استقر عند رئيسنا الكهل الذى يدنو من سن المعاش ٠ ولم يعد الأمر تسلية فحسن السماوى ليس جلفا فقط ، ولا قريبا للمدير فحسب ، ولكنه أيضا من أقاصى الصعيد ، من أرض عرفت بأنها ترتوى بدماء البشر ، فذهبنا فى التخمين كل مذهب ٠

ومرة اهتزت الادارة بصوت حسن السماوى وهو يرتفع بحدة كأسنان المنشار قائلا :

ـ الحكاية أن عقلك ليس فى رأسك !

واتجهت صوبه الأنظار من جميع الأركان فاذا به متحفزا فوق مقعده يرمى بنظرة حاقدة برهان الواقف أمام مكتبه ٠

وقال الأخير بصوت المعتذر :

ـ هفوة لا خطورة لها ، والاستمارة لم ترسل بعد الى المراجعة !

فصاح السماوى :

ـ هفوة أو جريمة هذا تقديرى أنا لا أنت ، الحقيقة أن عقلك ليس فى رأسك !

ورمى بالاستمارة بصورة تدعو الى الاستفزاز ثم صاح بالشاب وهو راجع الى مكتبه :

ـ هنا شركة لا تكية !

اصفر وجه برهان من التأثر ومضى يعيد تحرير الاستمارة لكن أثر الهجمة الحاقدة انعكس على سحر بدرجة أشد فيما

خيل الى ، وضح تماما أن سرعتها المألوفة فى الكتابة تعثرت ، وأنها تمعن النظر فى الكلمات ولكنها لا تقرأ شيئا · ووضح كذلك أن السـماوى رأى شيئا رابه أو حطم آماله · ولعله ضبطه قبيل انفجاره بثوان فهو لا يكتم انفعالا ، ولكن هل يظن أنه بالغ مراده بالقوة ؟ ! · وأخذ يطاردها فى الطريق كما قال الرواة · ورئى وهو يحادثها فى محطة الأوتوبيس · ولم ندر بطبيعة الحال كيف ينتهى عنـاده · وتعلقنا جميعا بأمل واحد آمنا بأن به وحده تتحقق العـدالة الالهيـة فى ادارتنا · وقال جارى :

ــ ألم تعلم ؟ ، لقـد قابل عمهـا وهو ولى أمرها ليطلب يدها ··

سألته بلهفة :

ــ والنتيجة ؟

ــ الاعتذار ·

ثم مستدركا بفرحة غير خافية :

ــ فشل فى البيت بعد فشل فى الطريق ·· ؟

وبات غرام السماوى مشكلة ادارتنا · وزاد طبعه سوءا على سوء · عامل برهان معاملة شاذة اتسمت بالاسـتفزاز والتحدى والتربص حتى آمن الشـاب بأنه لا مستقبل له فى شركتنا · أما معاملته لسحر فجرت على أسـلوب مضـطرب مذبذب ، فتارة يعاملها بفظاظة ويغلظ لها فى القول ، وتارة يستميلها برقة وعطف ، ثم يعود الى الأولى ، و لايستقر بحال على حال · وكلما زاملت الصبر أحرقه الحقد وخنقه اليأس · وقال مرة دون مناسبة أذكرها :

ــ عندنا تعامل المرأة كالحيوان ولذلك يقال عنا اننا خير من يفهم النساء !

ولم تسكت سحر فقالت بسخرية :

ـ هذا عندكم !

وضحكنا جميعا حتى هو ابتسم ابتسامة صفراء ولكنه عاد يقول :

ـ صدقونى اننا نعاملها بما تستحق !

وعرف أن برهان يسعى الى الانتقال الى شركة أخرى وأنه من غير المستبعد أن تمضى سحر فى أثره · وذات صباح لاحظنا أن برهان لم يحضر · ومضى النهار دون أن نتلقى بلاغا باعتذاره كالمتبع · وكذلك مضى اليوم الثانى · وفى اليوم الثالث جاءتنا رسالة تنبئنا بوجوده فى المستشفى للعلاج حيث قد وقع عليه اعتداء أثيم · وزرناه جميعا · وجدناه فى جناح الجراحة مجبس الذراع والساق ملفوفا بالأربطة البيضاء لا يبدو منه الا عينان خابيتان · وسرعان ما أمرنا بمغادرة الحجرة فلبثنا مع شقيقه فى الاستراحة وقد تملكنا شعور بالرهبة والخطورة ·

ولم يكن أدلى بأقواله بعد ولكن شقيقه أخبرنا بأن مجهولين اعتدوا عليه بالعصى وهو راجع الى بيته ليلا ثم لاذوا بالفرار دون أن يتعرف على شخصياتهم أحد · والراجح أنهم كانوا من حملة الجلاليب وأن الاعتداء والهرب كانا مفاجأة صاعقة وأن الظلام كان كثيفا آخر الليل ، هكذا قرر الشهود القلائل · ومع أن أفكارنا تلاقت عند ظن واحد الا أن أحدا لم يجهر به بسبب وجود حسن السماوى بيننا · وقد علق على ما سمع قائلا :

ـ هذه حال من الفوضى لم يسمع عنها من قبل ··

ثم سأل شقيق برهان :

ـ أله أعداء ؟

فنفى الرجل أنه يعرف له أعداء وأمل فى مزيد من

الوضوح عندما يستطيع برهان أن يدلى بأقواله · وعدنا جميعا واجمين وقد احمرت من البكاء عينا سحر ·

ولما أدلى برهان بأقواله استدعى حسن السماوى الى التحقيق · وبدا أنه استبشع التهمة بكل قوة · واستمرت التحريات طويلا ولكنها لم تسفر عن شىء · وكان على برهان أن يبقى فى المستشفى طيلة شهرين أو أكثر · وسألنى جارى ممتعضا :

ـ ما جدوى هذه الحياة ؟

وحل بادارتنا وجوم كئيب مشحون بالسخط الصامت ، أكده باستمرار وجود سحر بيننا · وبطريقة أو بأخرى أعلنت وجوهنا وألوان سلوكنا عن باطننا · ولم نخرج فى معاملته عن حد الأدب والمجاملة ولكن تجهم أرواحنا حاصره بغضب بشرى رهيب · ونزل عن كبريائه فجعل يباسطنا فى الحديث أو يضاحكنا لأوهى مناسبة كأنما ليسبر مدى ظنونه ومخاوفه فكنا نجاريه فى تكلف وسرعان ما يسيطر الصمت · ولم يعد يتحملنا فهتف مرة دون مناسبة ظاهرة :

ـ أنا لا أخشى أحدا ولكنكم مخطئون !

وتساءل رئيسنا فى دهشة :

ـ ماذا تقصد يا سيد حسن ؟ !

فقال بعصبية :

ـ أنت تعلم وهم يعلمون ولكنى لا أخشى أحدا !

وتضاعف حنقنا عليه وتمنى بعضنا أن يراه جثة هامدة · وبدوره قاطعنا ولكنه كان اذا اشتبك معنا فى حديث بسبب العمل تحدانا بجده أو بسخريته · وبمرور الوقت بدا كأنه قدر على تجاهل عواطفنا · بل وعاد الى التقرب من سحر بالابتسامة الكريهة أو الكلمة رغم أنها كانت تتصدى له فى نفور متصلب كالديك المتحفز · ونجح فى امتلاك زمام نفسه

وجرت حياته بصورة طبيعية شهدت له بقـوة الأعصـاب ٠ وأخبرنى جارى ـ نقلا عن سحر نفسها ـ أنه قال لها انه برىء مما تظن ، وأن نقطة ضعفه الوحيدة أنه يحبها وأنه مصمم على أن يتزوج منها ! ٠ والظاهر أنه لم يظفر بأية استجابة اذ صبحنا يوما بأن سألنا :

ـ هل قرأتم الحكاية ؟

وراح يقرأ فى الجريدة نبأ حادثة وقعت فى المنيرة اذ قتل شاب جارته بعد أن يئس من حبها ! ٠ وكنا قرأنا الخبر ولكن اعادته على أسماعنا بلهجته الصعيدية المتشفية أثارتنا الى أبعد الحدود ٠ أدركنا أن افلاته من التهمة زاده على عكس المتوقع فجورا ، وأنه من طبيعة شرسة لا تقف عند حد ٠ ماذا يقصد بتلاوته ؟ ٠ ومتى تدركه العدالة التى لا نتصـور أن تهمل أحدا من الطغاة ؟ ٠ وقلت معلقا على الحادثة :

ـ أهلك الفتاة وأهلك نفسه !

وقال رئيسنا الكهل :

ـانى أعجب كيف يزهق انسان روحا بشريا ؟ !

فأجاب السماوى متهكما :

ـ ذلك أنك لم تعرف الحب ٠٠ !

واسترقت الى سحر نظرة فرأيتها منكبة على العمل ولكن بوجه مكفهر ٠ وكأنى أدركت للصواعق والزلازل والبراكين معنى جديدا لأول مرة ٠ وزفع الغطاء عن وجه زميلنا برهان معلنا عن منظر لا ينسى ٠ تحطم عرنين الأنف ، واختفت قطعة من شـفته السفلى عنـــد الثنيتين ٠ وتركت الخياطة الطبية بوجنته اليسرى طابعا كأثر الاحتراق ٠ وفى كلمة ضاع بهـا شبابه كأن لم يكن ٠ وعاد الى عمله محطم النفس فملأ قلوبنا بالشجن ٠ وما عتم أن غادرنا الى عمـل آخر ٠ ولبث حسن مصرا على هدفه لا يثنيه عنه صد أو يأس ٠ وكثيرا ما كانت

سحر تضيق بملاطفاته حتى صاحت به مرة وهى تتسلم منه رسائل ومذكرات :
ـ لا تحدثنى هكذا من فضلك !
والتفتنا نحوهما بوجوه غير متسامحة فتراجع قائلا :
ـ آسف ، أنت لا تفهمين قصدى !
فمضت عنه وهى تقول بتحد :
ـ أنا لا أخشاك ․․ لا أخشى شيئا !
ولكن شيئا لم يكن ليصرفه عن التعلق بها ․ وتساءلنا بقلق هل نفاجأ بما ليس فى الحسبان ؟ وناقشنا الموضوع حول مائدة الغداء بمنزل رئيسنا الكهل ․ سألت :
ـ هل يقدم على قتل الفتاة ؟
فأجاب جارى :
ـ انه لا يتورع عن شىء ․․
واذا بزميل يقول :
ـ أخشى أن ينتهى بها النضال الى القبول !
ـ القبول ؟ !
ـ لم لا ، انه لا يريد أن ينهزم والمرأة كما يقولون لغز !
وسألت رئيسنا عن رأيه فأجاب :
ـ انى أومن بالله ويتجدد ايمانى به عند كل صلاة ․․
فسألته :
ـ وهذه الفوضى ؟
فكان جوابه أن ابتسم دون أن ينبس ثم قدم لى تفاحة !
وبدا حسن السماوى فيما تلا ذلك من أيام هادئا ، أو راضيا ، أو مستسلما ، كأنما قد انتهى من نضاله الى خاتمة ․ ويوما قال لنا :
ـ حضراتكم مدعوون لحفل خطوبتى !
ودق قلبى ․ ولا شك أن سؤالا واحدا محيرا دار برءوس



.. وكثيرا ما كانت سحر تضيق بملاطفاته حتى صاحت به مرة
وهى تتسلم منه رسائل ومذكرات : لا تحدثنى هكذا من فضلك!

الجميع · وجعلنـا نختلس النظرات الى سحر ونعانى حزنا كاليأس من مصـير الانسان · والتفت السـماوى نحو سحر أيضا ، وابتسم ، ثم هز رأسه كالمتسائل ، فابتسمت بدورها وقالت :

ـ بكل سرور ولكن أرجو أن تدعو برهان أيضا ليوصلنى عند نهاية الحفل الى البيت ··

وتنهدت قلوبنا فى ارتياح عميق ···

واختلست منه نظـرة بعد أن تحولت عنه الأعين فرأيت الوجه الأسمر الداكن يقطر يأسا كالموت ··


الختام

علام يسرى – مراقب عام الوزارة – فى غاية من السعادة · استدعاه الوزير وقال له :

– اتخذ فورا اجراءات تعيينك وكيلا مساعدا للوزارة ··

وقام من مجلسه أمام مكتب الوزير فانحنى امتنانا ورأسه يدور من الذهول ثم قال :

– ما أعجزنى عن الشكر ولكن أرجو أن أكون عند حسن الظن بى ··

فقال الوزير :

– أنت رجل كفء ، أما سمعتك الطيبة فحقيقة أجمع الناس عليها ··

ووجد علام يسرى نفسه فى غاية من السعادة فامتلأ حبا لكل شىء ورضى عن كل شىء · وكانت له ابنة وحيدة فى العشرين من عمرها ومن خريجات الجزويت ، وقد تقدم لخطبتها أخيرا قاض شاب ، وبذلك وضح تماما أن رسالته فى الحياة تتم على أكمل وجه يحلم به انسان · وجاءه مدير مكتبه بأوراق العرض ثم قال عندما هم بمغادرة الحجرة :

– عبد الفتاح حمام ما زال يلح فى طلب المقابلة !

فقطب المراقب العام قائلا :

– وقتى ضيق كما ترى ، اسأله عما يريد ، وان كان لديه طلب فحوله الى جهة الاختصاص ··

– ولكنه يلح فى طلب المقابلة دون ذكر أسباب ، وقد طردته أكثر من مرة من مكتبى ولكنه يعود باصرار ، ويكرر أن لديه ما يقوله لسيادتك شخصيا ··

واضـطر الى أن يحدد له وقتـا للمقـابلة وهو كاره ٠
وجاء عبد الفتاح حمام يسير فى خطوات متهيبة وهو غاض البصر ، وانحنى باجلال وهو يقول :
ـ صبحك الله بالسعادة يا سيادة المراقب ٠٠
ولفت نظر المراقب بقصر قامته وبروز صدره بروزا غير طبيعى ولونه الشاحب وشعر رأسه الأسود الغزير ٠ وسأله وهو يدارى غيظه :
ـ لماذا تصر على تضيع وقتى ؟
وتهيأ عبد الفتاح للكلام فأضـاع ثوانى بارتباكه فهتف المراقب العام :
ـ متى تجود يا ترى بالكلام ؟
فاشتد ارتباك الشاب كما تجلى فى احمرار وجهه وقال بعجلة واندفاع كأنه يقذف بنفسـه فى المـاء فى أول تدريب يخوضه :
ـ أنا موظف ملفـات الخدمة بالمستخدمين ، وقد رجعت الى ملف سعادتك لمناسـبة اعداد البيـان التمهيدى للتعيين الجديد ، مبارك يا فندم ! ، الموقف أنسـانى ما كان يجب أن أبدأ به ٠٠
وازدرد ريقه متوقفا عن الكلام فتساءل المراقب العام :
ـ ألهذا تطلب مقابلتى ؟ !
ـ كلا يا فندم ، ولكنى بالرجوع الى ملف سيادتك اطلعت على شهادة الميلاد ٠٠
آه ٠ شهادة الميلاد ! ٠ وانتزعه الماضى من حاضره بجذبة واحدة قاسية ولكنه لم يصدق ٠ وتساءل ببرود :
ـ نعم ؟
ـ اطلعت عليها فوجدت بها شيئا غير طبيعى ٠٠
اذن هو ذلك ! ٠ لا يمكن أن يصدق ٠ ولكنه حقيقى كجثة

مطمورة اكتشـفت فجأة ٠ وقاوم من خلال شـعور بالاعدام فتساءل :

ـ ماذا تقصد ؟

فقال عبد الفتاح بشىء من الهدوء لأول مرة :

ـ يوجد « تحوير » فى الشهادة !

ـ لا أفهم ! ، لعله تصحيح أو شىء من هذا القبيل ! ؟

ـ من يدقق النظر لا يشك أنه ٠ ٠

وخرقت أذنه الكلمة غير المنطوقة ٠ وشعر بيأس كالموت ٠ أما الآخر فقال :

ـ رأيت أن أرجع الى سيادتك قبـــل أن أكتب مذكرة عن الموضوع لمدير المستخدمين !

على أى حال يجب ألا ينهار أمام خصمه ! ٠ لقـد قضى عليه ولكنه يجب ان يتماسك وأن يتجلد فمن يدرى ؟ ! ٠ واكتظ قلبه بالكراهية ، ولكن ما الحيلة ؟ ٠ واليوم موعد اجتمـاع لجنة الميزانية ويجب أن يبدو كل شىء طبيعيا ٠ وسأله :

ـ هل دققت النظر ؟

ـ نعم ! ، كان يمكن أن أكتفى بمراجعة صحيفة الأحوال ولكنى اخلاصا منى لعملى أراجع الوثائق الأصلية ، ولا أدرى كيف وقع بصرى على ٠٠٠

آه انه لا يدرى كيف ! ٠ وفاض قلبه باليأس والكراهية ، لولا الترقيـة المنتظرة لرقدت الشـهادة فى أمان حتى نهاية الرحلة الوشيكة ، على أى حال لا يجوز أن ينهار أمام عينى خصمه ٠

وسأله :

ـ وبعد ؟

ـ قلت أرجع أولا الى سيادة المراقب العام !

ـ انى أشكر لك تصرفك ولو أن ٠٠

ودق جرس التليفـون فاذا بوكيـل الوزارة يطلبه فنهض منزعجا خشية أن يخونه صفاء الذهن الضرورى للمقابلة ٠ وقال من خلال عالم مقوض الأركان :

ــ اسمع يا بنى ، أنا الآن مشغول جدا فلنؤجل الحديث ، وعندى لجنة ميزانية بعـد الظهر فموعدنا الغـد ، ان أقوالك غريبة وغير مفهومة لى ألبتة فلنؤجل مناقشتها الى غد ٠٠

وفى الطريق الى مكتب الوكيل غاب تماما عمـا حوله ٠ وتطلع الى الأمام بنظـرة ذاهلة منقبـا عن القـوة المدمرة الساخرة ٠ متى يغمض له جفن ؟ ٠ وتمنى ان يتغيب عن لجنة الميزانية ليصفى حسـابه مع معذبه ولكنه جفـل من مجرد التفكير فى ذلك ٠ انه اعتراف خطير سيعجل بالقضاء عليه ٠ ولكن هل انتهى حقا ؟ ! ٠

وغادر الوزارة عقب مقـابلة الوكيل ٠ اسـتقل سـيارته الأوبل التى يسوقها بنفسه وعند خروجه من باب الوزارة لمح عبد الفتاح حمام واقفا أمام محل صغير لبيع الفـول يتناول سندويتش ٠ التقت عيناهما لحظة ريثما انعطف الى الطريق ٠ وقد خفق قلبه فى رعب حقيقى ثم اشتعل بالكراهية ٠ لعـله ينتظره ! لعله مجرم محترف ٠ لقد انتهى حقا ٠

وفى البيت كان حديث الأفراح يتردد فى أكثر الأوقات ٠ عن العـريس والحفل يتكلمون ، عن الحلى والملابس والجهاز لا ينقطع الحديث ٠ ومنى سعيدة جدا ومثلها أمها وسرعان ما ينخرط فى همومهم الممتعة ويدلى برأيه فى كل شىء ٠ ولكنه حصن نفسه هذه المرة بقوله :

ــ الظـاهر انى متوعك اليوم ، أعفـونى من الكلام ومن الطعام ٠٠ !

بذلك حصن نفسه ضد الأعين المتفحصة ، وشرب كوبا من البرتقال ثم آوى الى فراشه ٠ وسعادة منى المتجلية لم تبرح

مخيلته فعذبته عذابا اليما · وقال لنفسه بأنه لن يسمح لقوة بالغدر بهذه السعادة · واستعرض فى لحظات حيـاة طويلة طابعها الجد والأمانة والاستقامة ·

علام يسرى مثـال طيب حقا فى وسـط ملعـون · وذلك الخطأ الذى ارتكبه منذ خمسة وثلاثين عاما ينفجر على غير انتظار كلغم منسى · وقد ارتكبه ليقبل فى المعهد وحتى لاتضيع آماله هباء · لم يكن مغـامرا ولا مستهترا بالمبـادىء ولكن اغتاله الضعف والأمل · كان موقفا رهيبا عندما قدم أوراقه فنظرة مدققة من عين المسجل كانت كفيلة بنبذه من المجتمع · وآمن بأن جريمته قد دفنت فى الملف الى الأبد ولكنه لم ينس انه سيغتال الحكومة فى عامين من مدة خدمتـه · ولم يرحه ما قدم من عمل مجد واستقامة فعزم على طلب الاحالة على المعاش عندما يحل موعده الحقيقى الذى لا يعلم به أحد سواه ، أجل طالما ذكر نفسه بذلك ولعل مرض القلب الذى انتابه منذ أعوام كان نتيجة لحدة شعوره بالشوكة الخفيـة المنغرزة فى ضميره ، وقد تسلل عبد الفتاح حمام الى حجرته ليقـوض بنيانه بلطمة واحدة وجعل يتطلع الى فضاء الغرفة منقبا فى ذهول عن القوة المدمرة الساخرة ! ·

وذهب الى مكتبـه مبكرا فى اليوم التـالى ثم اسـتدعى الشاب الى مقابلته وبمجرد أن رآه وهو يقترب من مكتبه فى أدب كاذب وثبت فى باطنه رغبة جنونية فى الانقضاض على رقبته الغائرة بين كتفيه وخنقه · غير أنه رمقه بنظرة طبيعية هادئة كأنما لم يؤرقه ليلة كاملة وقال :

ـ لنعد الى حديثك الغريب ، الحق أنه يهمنى أن أعرف كل شىء ·

وجلس عبد الفتاح فى خضوع وأعاد على مسمعه خلاصة ما قاله أمس ، فسأله :

ــ ألا يجوز أن تكون واهما ؟

فأجاب بهدوء معذب :

ــ الواقع أننى لم أصدق عينى بادىء الأمر ، دققت النظر طويلا ، ولكى أقطع الشك باليقين رجعت الى شهادة المعاملة الخاصة بالاعفاء من التجنيد فتأكد لدى أن ثمة فارقا فى العمر بين الشهادتين مقداره عامان ٠

وساد صمت أليم غض المراقب عينيه فى استسلام نهائى وهو يتأذى بنظرة خصمه على صفحة وجهه ٠ انه يطالبه بثمن السكوت ٠ وعندما ينطق الصمت بما يضمره سيتردى فى هوة الجريمة وهو فى كامل وعيه بما يصنع هذه المرة ٠ سيخطو الخطوة الأولى فى طريق قذرة لا نهاية لها ٠ أجل لا نهاية لها ٠ وأسر لا قرار له ٠ آه أما من وسيلة لدفنه ؟ ! ٠ وسأله :

ــ وبعد ؟

ارتبك الشاب قليلا ثم قال :

ــ قلت يجب أن أخبر سيادتك أولا ٠

ــ وثانيا ؟

انه ينظر فى الأرض ليخفى انفعالاته الشريرة ٠ انه لا يريد أن يموت ولا أن يختفى كشبح !

ــ ألا تريد أن تتكلم ؟

ولما لم يسمع منه جوابا سأله بصوت غريب فى نبرته :

ــ ماذا تريد ؟

وبصوت ضعيف أجاب :

ــ لا شىء الا ما يرضيك ، لم أقصد الا أن أؤدى خدمة لك ، أنت رجل نبيل ، وسأترك لمرى لتقديرك !

ــ تكلم أرجوك ٠٠

ـ أنا آسف جدا لموقفى هذا ، ولكنها ‥ ولكنها فرصتى الوحيدة ‥

ـ وهى ؟

قال بضبط نفس أكثر :

ـ يا سيادة المراقب أنت أدرى ‥

قال وهو يشعر بذل لم يشعر بمثله من قبل :

ـ ما ترتيبك فى الأقدمية ؟

ـ لا أمل لى فى ترقية بالأقدمية ، على أن أنتظر خمس سنوات ‥

ـ واذن ؟

فقال بجرأة أوضح :

ـ هنالك أكثر من طريق ‥

فقال المراقب بلا وعى تقريبا :

ـ هذا يورطنى فى تصرفات طالما عففت عنها ‥

وتبادلا نظرة انكسر لها قلب الرجل · تألم بلا حدود ـ انه يسخر من تعففه ومن حياته جميعا ·

ولم يعد يطيق رؤيته فقام مادا له يده · تصافحا ثم غادر الشاب الحجرة دون أن ينال وعدا صريحا ولكنه بدا مطمئنا كل الاطمئنان · وارتمى على مقعده وهو يقول لنفسه انى مريض · ما بى هو مرض بكل معنى الكلمة · وعندما غادر الوزارة بسيارته لمح عبد الفتاح بموقف الأمس أمام محل الفول · وانعطف بالسيارة دون أ نينظر نحوه · غدا سيتبعه كظله وسيقع هو تحت رحمته · ودفع السيارة نحو أطراف المدينة بلا هدف وكان تلفن الى أسرته بأنه لن يعود قبل المساء · يجب أن يخلو الى نفسه وأن يبت فى أمره بلا تردد ودون ابطاء · أيسقط فى الهاوية أم لا ؟ · هل يسلم نفسه



وارتمى على مقعده وهو يقول لنفسه : انى مريض

أسيرا مدى العمر أو يرى حلا آخر ؟ · وكان ينطلق بسرعة
غير عادية ويحاور الشاب طوال الوقت · أتحسب أنك ملكت
كل شيء ؟ · أنا أقول لا فمـا أنت صـانع ؟ · أجل نحن فى
الخلاء حقا ، كورنيش النيل ، ألا تحب هذا المنظر الخلاب ؟ ·
لعلك خائف ، أرأيت ، كان ينبغى أن أكون أنا الخائف لا أنت
أليس كذلك ؟ · لا ·· لن يفيـــدك الصراخ · مت كحشرة ·
وشدت قبضته على عجلة القيادة بقوة فظيعة · ستطرح هنا
وحيدا بلا أدنى أمل · ولكن ما أسخف هـذه التخيلات ! ··
سـيلقاك عبد الفتـاح غدا ليسـمع رأيك الأخير · وزاد من
السرعة فى شبه خلاء تام · رأيك الأخير · بالقبول مع الأسر
أو الرفض مع الفضـــيحة · وفى الحالين لا يمـكن أن تنسى
كرامتك · ومن غير الله يمكن أن ينتشلك من مأزقك الخانق ؟ ·
ودعا ربه طويلا حتى اغرورقت عيناه ·



ووقع حادث أسيف فى طريق الكورنيش ·· !

وقال المحزونون : جرى القضاء عليه وهو يترقب سعادتين :
ترقيته وزواج كريمته ··



سُوق الكانتو

غاص حسـونة فى سوق الكانتو متأبطا لفـافة كبيرة من الورق · كانت شمس الصيف الحامية تلهب الجموع الحاشدة وقد اصـطفت على الجانبين عشرات من عربات اليـد مثقلة بالملابس والأوعية والأوانى والأدوات القديمة · قصد حسونة عربة رمضان ولكن منعه من الوصول اليها سياج من الجلابيب والملاءات اللف ، ولم يجد صياحه فى اختراق هدير صاخب من أصوات النداءات والمسـاومة والسب · ورصـده حتى التفت ناحيته فصرخ بأعلى صوته :

ـ يامعلم رمضان !

انتبه الرجل الى مصدر الصوت فلوح له حسـونة بذراعه صائحا :

ـ معى هدية !

وشق رمضان طريقه اليه بجهد قاس حتى بلغه ثم سأله :

ـ بيع أم شراء ؟

فضحك حسونة عن أنياب كالأسياخ وقال :

ـ ربنا لا يقطع لنا عادة ··

ـ ما معك ؟

ـ جاكتة ··

وضح الاهتمام فى وجه رمضان فتناول اللفافة ثم استخرج الجاكتة ليتفحصـها · جاكتة رمادية فى حالة جيـدة كبيرة الحجم حتى لتصلح معطفا لحسونة · وسأله بلهجة ذات معنى:

ـ من أين ··· ؟

فأجابه وهو يغمز بعين حمراء :

ـ اطمئن ..

ودس رمضان فى يده ورقة من ذات الخمسة والعشرين وهم بالرجوع ولكن حسونة تعلق بذراعه بحرارة وهو يقول :

ـ عملى ليس نزهة ، ليس نزهة ..

وبعد دفع وجذب رمى له بخمسة قروش بحركة نهائية قاطعة ثم شق طريقه مرة أخرى الى عربته .

وجال حسونة فى أطراف السوق فابتاع أربع سجائر ورغيفا ولحمة رأس ثم مضى الى جدار المرحاض العمومى فجلس فى ظله ، وراح يدخن سيجارة بهدوء مؤجلا الأكل الى حين . شنكل ! . تخيل وجهه القاسى ورأسه المشوه بالندوب . وارتعد جسمه الضئيل . لو شك فى لحظة واحدة انتهيت .

وتناول طعامه ولكن وجه شنكل سد حلقه .

وفى الليل لبد عند المنور يتصنت . وسمع صوت شنكل وهو يسأل بغلظة :

ـ أين الجاكتة يا ولية ؟

فأجابت المرأة :

ـ لم تلمسها يدى ..

ـ زارك أحد ؟

ـ أبدا ..

ـ خرجت ؟

ـ أبدا ..

ـ عفريت أخذها ؟

ـ ربنا يعلم ..

وترامت اليه دمدمة عراك فارتعد فى مكمنه .

ـ يا مجنون .. يا وحش ..

ـ تعضيننى يا كلبة ؟

ـ يعنى أموت وأنا ساكتة ؟ .. ما قيمة جاكتة ؟

ـ يا خرابى ، فيها ما يساوى تعب عمر يا مجرمة ..

ابتعـد حســونة عن المنور وهو يغمغم فى ذهول « تعب عمر » . انتقل من سطح الربع الذى يسكنه شنكل الى السطح الملاصق له قاصدا غرفته الخشبية . تعب العمـر ؟ ! . ولكن كيف ! لقـد فتش الجيوب جيبا جيبـا فلم يعثر على شىء ! . البطانة . أجل البطانة . ولكن كيف كان له أن يتخيل ذلك ! يجب أن يعثر على رمضان بأى ثمن . ولكن هل يرتاب شنكل فى أمره ؟ . هل يتصـور أن خروفا يجرؤ على اقتحام عرين الأسد ؟ . ان عمره يعد بالدقائق اذا لم يحصل على تعب العمر ويرحل عن البلد ..

وغادر ربعه للبحث عن رمضان . وجد سوق الكانتو خاليا الا من شعاع خافت ينبعث من مصباح عمومى فى أقصى طرفه الشمالى . ولم يعثر له على أثر فى قهوة الجوهرى ، ولا فى مجلسه بسوق الخضار ولا فى غرزة أم الغـلام . أتراه يعـد النقود فى بيته ؟ . ولما لم يكن يدرى أين مسكنه فقد رجع الى سوق الكانتو عازما على قضاء الليل فوق الطوار ليكون أول مستقبل له فى الصباح .

وجلس القرفصاء أقرب ما يكون الى المصـباح . ضيعت ثروة يا حسونة الكلب . ولكن من كان يصـدق أن شنكل يترك ثروة فى باطن جاكتة مسروقة ؟ ! . وسمع وقع أقدام تقترب فنظر نحو الظلام فرأى شبحا قادما . وعندما دخل القادم مجال الشعاع وضحت معـالمه بعض الشىء فاذا به شنكل ! . ملأه الرعب فانتتر واقفا بلا وعى فعرفه الرجل ورماه بنظرة سمرت قدميه فى موضعه :

ـ حسونة !

فقال بصوت متهدج :

ـ نعم يا معلم ..



لقد فتش الجيوب جيبا جيبا فلم يعثر على شيء ! ٠

ـ ما لك مكوما كالزبالة !
ـ راسى ثقيل فقلت أنلم فى الهواء ٠٠
وصفعه كأنما يجود عليه باحسان وسار فى طريقه ٠ لم يصدق عينيه ٠ وتبعه بنظره حتى اختفى وهو لا يصدق عينيه، كلا انه لا يشـك فيه والا ما أعلن عطفه بتلك الصـفعة ! ٠ ما أعمى الخوف أليس هذا بطريقه الذى يخترقه كل ليلة الى سوق الخضار ؟ ! ٠ وتنهد فى اعياء ثم تداعى على الأرض ٠
واستيقظ مبكرا والحياة تدب فى السوق ٠ وما لبث أن راى رمضان قادما يدفع عربتـه ٠ هرع اليـه بلا تدبير وقال بلا تمهيد :
ـ معلم رمضان أين الجاكتة ؟
رمقه الرجل بازدراء وهو يتمتم « يا فتـاح يا عليم » لما كرر الآخر سؤاله بلهفة أحد سأله :
ـ لم تسأل عن شىء لا يخصك ؟
ـ الجاكتة يا رمضان ؟
ـ عليك عفريت اسمه جاكتة ! ، بعتها ٠٠
ـ بعتها ! ، يا خبر أسود ، بعتها يا رمضان ؟ ، لمن ؟
أجاب بارتياب :
ـ عطية الحلوانى ٠٠
ـ يا خبر أسود يا رمضان ٠
وضاق به فزعق :
ـ انطق !
سأله بعينين مجنونتين :
ـ ماذا وجدت فيها ؟
فصفعه اعرابا عن حسرته وهو يسأله بكراهية :
ـ ماذا كان فيها ؟

ـ تعب عمر !

ـ عمر من ؟

ـ شنكل !

ارتعد الرجل فهتف :

ـ شنكل ! ·· تبيع لى مصيبة !

ـ ولكن مصيبة بيعها أكبر ·

ـ صحيح انك نحس !

ـ البطانة يا رمضان ··

فكر رمضان يائسا ثم قال متنهدا :

ـ لا فائدة من النواح ، انتظر الليل حتى يرجع الحلوانى من حلوان ··

وقطع الكلام عندما رأى زبونا واقفا ينتظـر لم يدر متى ولا كيف جاء · وتفحص حسـونة الزبون باهتمـام وقلق ثم ابتعد ·

وعند المساء ذهبا معا الى قهوة الجوهرى فوجدا عطية الحلوانى منهمكا فى عشرة دومينو · فصافحه رمضان وقدم له حسونة ثم اشتركا فى اللعب · وغادروا القهوة معا لاتمام السهرة فى حجرة الحلوانى فمشوا جنبا الى جنب فى شارع الموسكى فى شبه ظلام تتخلله أنوار متباعدة خافتة · وجعلا يحاوران الشاب بجهد متكلف وهما يفكران فى شىء واحد ، ودون مناسبة قال رمضان :

ـ ان شاء الله تكون الجاكتة موفقة ··

فقال الحلوانى وهو يتثاءب :

ـ طبعا ، ولكنها تحتـاج الى تضـييق (ثم وهو يلكزه ضاحكا) وتغيير لون ، سلمتها أمس الى عبدون الرفاء ··

وماتت رغبتهما فى مصاحبته ولكنهما لم يجدا بدا من

الذهاب · وغادرا الحجرة قبيل الفجر وهما يترنحان فقال حسونة متأوها :

ـ فاز عبدون بتعب العمر ··

فهتف به :

ـ سنرى ، أنت من يوم مولدك نحس ··

ـ أنا فى حاجة الى النقود لأهرب ··

فقبض على قفاه وهو يسأله :

ـ وأنا ؟ ! سيظنني شريكك · ·

فتخلص من يده قائلا :

ـ انه لا يدرى شيئا عن علاقتنا ···

وفى الصباح ذهبا معا الى دكان عبدون الرفاء وهو يتأهب للعمل ، وعانقه رمضان معانقة الخلان ثم جلس ثلاثتهم على أريكة فى نهاية الدكان التى كانت أشبه بدهليز ضيق غائص فى الجدار ·

ومال رمضان على أذن عبدون رغم أنه لم يكن معهم رابع وهمس :

ـ لا أحب أن أشغلك عن عملك فى ساعة الصبح ولكنا جئنا بخصوص الجاكتة التى سلمها لك عطية الحلوانى ···

فسأله عبدون بدهشة :

ـ ما لها ؟

ـ هل قمت بالمطلوب لها ؟

ـ لم أمسها بعد ··

تنهد رمضان وحسونة بارتياح وقال رمضان :

ـ تلزمنا بعض الوقت ، دقائق لا أكثر ··

فقال الرجل بقلق :

ـ حد الله ! ·· انها أمانة ·· .

ـ عيب يا عبدون ، ستكون عندك بعد دقائق ··

نظر اليه بارتياب ، وردد عينيه بين الرجلين ، وابتسم ابتسامة خبير ، ثم نهض الى كومة من الملابس المعلقة فى الجدار ففرها بسرعة حتى استقرت يده على الجاكتة الرمادية فنزعها وراح يتحسسها باهتمام حتى استكنت يده فوق أسفل البطانة · وحدج رمضان بنظرة ساخرة فقال الرجل :

ـ أحببت أن نقوم بشغلنا بعيدا عنك ··

هز عبدون منكبيه استهانة ، ورمى الطريق بنظرة حذرة ، ثم رجع الى الأريكة ويده تفك البطانة بخفة ، ثم استخرج رزمة من الأوراق المالية · ند عن حسونة صوت كالشهقة ، وقلق رمضان فى مجلسه ، أما عبدون فبدا نهما مصمما ، وقال رمضان بلهفة :

ـ فلنقتسمها بسرعة قبل أن يجىء أحد ··

عند ذاك اختفى النور الهادىء الوارد من الطريق ولكنهم لم ينتبهوا لذلك · وارتفع صوت كالخوار يقول بقسوة :

ـ عفارم عليكم ···

تحولت الرءوس فى فزع نحو الباب · وجدوا أمامهم شنكل · شنكل بكل ما أوتى من طول وعرض وكريه منظر يسد الباب سدا · صاح عبدون :

ـ أنا عبد مأمور ، ولا دخل لى فى شىء !

وصاح رمضان :

ـ على الطلاق ما أعرف صاحبها !

وخرس حسونة فلم ينطق · ودخل الرجل على مهل حتى تناول الرزمة من يد عبدون المرتجفة · والتفت نحو حسونة قائلا :

ـ هل ظننت أن عينى غفلت عنك دقيقة واحدة ؟

فتح الرجل فاه ولكن شنكل لطمه بيد كالمطرقة فاندلق من

ركن الأريكة فوق الأرض وهو يتأوه وكأنه يتقـايأ • وقال له بهدوء مضيف :

ـ اختف ان كنت تحب الحياة ••

واستدار ليغادر المكان ولكن صـفارة انطلقت • وطوق باب الدكان فى ثوان بالمخبرين •

ودخل الضابط شاهرا مسدسه وهو يقول بلهجة آمرة :

ـ كل واحد فى مكانه ••

وانقض عليهم المخبرون قبل أن يفيقوا من ذهولهم • وقال الضابط يخاطب شنكل :

ـ أتعبتنا أسبوعا كاملا الله يتعبك ••

وعند الظهر وقفت سيارة مرسيدس أمام القسم وغادرها رجل ربعة بدين ذو لغد هائل • قابل ضابط المباحث فصافحه ثم جلس وهو يقول :

ـ جئت بناء على اشارتك ••

فقال الضابط :

ـ قبض على سارق جاكتتك ، ووجدت نقـودك كاملة لم تمس ، وسوف تتسلمها فى الوقت المنـاسب ولكن ينبغى أن تبقى لاتمام بعض الاجراءات •

رمق الوجيه على سيف الضابط بنظرة امتنان وتمتم :

ـ همة عظيمة حقا !

فقال الضابط بلهجة سـاخرة وهو يتفحصه بنظـرة ذات معنى :

ـ أرجو أن تكون فى موضعها !

وقلق الوجيه وتأكدت ظنون طالما سـاورته ، ولكنه كان شديد الحذر ، وعليه أن يستزيد من هـذا الحذر مستقبلا • واستطرد الضابط قائلا بلهجته الساخرة :

ـ مبارك عليك ! المال الحلال لا يضيع •• !


وجهاً لوجه

فى أقصى مكان بالحديقة جلسا شـــبه منفردين • وطيلة الوقت تبادلا نظرة مفعمة بالتطلع والهنــاء وهمــا يحسوان الليمونادة :

ـ ستكون سهرة طيبة بسينما ركس •

ـ والفيلم عن قصة غرامية مشهورة فهو يناسبنا جدا •

ابتسمت لتعليقه • وكان الفانوس الأنيق يبعث ضوءا هادئا فأضفى عليهما غموضا فاتنا • وسطعت رائحة الياسمين المطل من ثغـرات التكعيبة المطـوقة للحديقة الصـغيرة ، ولم يكن بطرفها الآخر الا زوجان مثلهما غارقان فى التهامس • ونسمة لطيفة مشحونة برطوبة أغسطس ترددت من آن لآن •

وقال حامد :

ـ كالحلم ، كثيرا ما قلت ذلك لنفسى •

ـ هو كذلك ، لكنه حلم جميل •

منذ رآها فى رأس البر فى يوليو الماضى وهو يردد ذلك • بعد اختفاء خمسة عشر عاما رآها عند اللســـان ســـاعة القيلولة • التقت عيناهما فى نظرة تذكر وعرفان • وابتسما بلا خطة • تقدم منهـا مادا يده فصـافحته • أتذكرين مصر الجديدة ؟ • نعم •• شارع الزقازيق • منـذ ذلك الوقت لم أرك •

بلى ، متزوجة وخارج القاهرة أكثر الوقت • وتقابلا فى الصباح التالى فعلم أنها مطلقة من عام وأن ابنها الوحيد قد ضم الى حضانة أبيه • وغادرا المصيف فى يومين متعاقبين وهما على تفاهم وميعاد ••

ـ ها نحن الآن نفكر فيما كان يجب أن نفكر فيه منذ خمسة عشر عاما !

فابتسمت سهام قائلة :

ـ القسمة والنصيب ٠

ـ وكنت أراك كل يوم تقريبا ٠

ـ أذكر ذلك

ـ وكنت معجبا بك !

ـ ولكنك ٠٠٠ أعنى لم تفصح بأى سبيل عن ذلك الاعجاب ٠

قال بنبرة المعتذر :

ـ كنت وقتذاك مترجما صغيرا بالخارجية ومرشحا لبعثة ٠

ـ والعواطف أكانت محرمة على صغار المترجمين ؟

فضحك ضحكة مقتضبة ثم قال :

ـ ليس من السهل التحدث عن خيال الشباب !

ـ أما أنا فقد انتظرت حتى ضقت بالصمت ٠

ـ وبلغت أنا الأربعين ولم أتزوج ٠

بعد تردد وهى تبتسم :

ـ لماذا ؟ ٠٠٠ مجرد سؤال لا يتضمن أى اعتراض بطبيعة الحال ٠

ـ سرقنى الوقت ، كثيرون يمضون هكذا ٠٠

اتجهت عيناها لحظات الى العاشقين فى الطرف الآخر للحديقة ٠ ناضجة تماما وهو من حسن الحظ يفضل ناضجات نصف العمر ٠

ـ وعندما قابلتك بعد خمسة عشر عاما من الاختفاء وجدتك مطلقة وحزينة لحرمانك من ابنك ، فتذكرت بقوة غير

متوقعة أننى بلغت الأربعين دون زواج وقلت لنفسى لعل هذا اللقاء قد تم ليصحح أكثر من خطأ ٠

وترامت نشرة أخبار الثامنة والنصف من مقهى بالسوق وراء محل بيجل فاقتحمت مجلسهمـــا الهـــادىء المعبـق بالياسمين ٠ وتساءل حامد :

ـ هل الحرب حقا وشيكة الوقوع ؟

فقالت باستهانة :

ـ هكذا يقولون منذ أن تولى هتلر الحكم ٠

ـ صدقت ، المهم أن نتزوج فى أقرب وقت ممكن ٠

عكست عينـــاها نظـــرتين متعاقبتين ، الأولى مشرقة والأخرى غامضة دارتها بابتسامة فقال :

ـ لا شك أنك فكرت فى ابنك ٠

ـ أنت تقـرأنى جيـــدا ولكنى على الحالين لن أراه الا نادرا ٠

ـ يمكن الاتفاق على ذلك مع زوجك ٠

ـ لن يذعن ، انها العداوة العمياء ٠

طالعها بنظرة انكار فاستطردت :

ـ أكثر أعوام المعاشرة احترقت بنار العداوة ٠ واستمرت بفضل تعلقى بابنى ، حتى أدركنى اليأس ٠٠

ـ سينسى الرجل العداوة مع الزمن ٠

ـ ليس هو بالرجل الذى ينسى ٠

ـ أمر مؤسف حقا ٠

ـ المهم أن تفكر طويلا قبل ٠٠٠

ـ فكرت طويلا ثم اخترتك عن اقتناع وحب ٠

قالت برضى :

ـ الواقع أنى أشعر بغربة شديدة فى بيت أختى بالرغم من أن حالتى المالية لا بأس بها ٠

ـ انى أدرك ذلك يا عزيزتى ، لكن أتسمعين ؟ ! هل حقا ستقع الحرب ؟

ابتسمت ابتسامة دارت بها ضيقها بقطع تيار الحديث الأول وقالت :

ـ لم تعد الأقوال تنطلى على !

ـ الحالة أحرج مما تظنين ·

ـ أهى تزعجك لهذا الحد ؟

ـ ايطاليا رابضة فى ليبيا ·

رنت اليه بنظرة هادئة فاستطرد :

ـ وهى رابضة أيضا فى الحبشة ، أتدركين معنى ذلك ؟

ـ ولكن الانجليز ··

ـ الانجليز ، اما أنهم ضعفاء كما يؤكد موسولينى واما أنهم أقوياء كما يدعون ، وفى الحالين سنتعرض لأهوال الغزو ·

ـ أنت منزعج كما لو أن الحرب ستعلن عليك أنت ! ، بالله خبرنى لماذا ترى أن يتم الأمر فى أقرب وقت ممكن ؟ !

ـ آه ·· ، نعم ، يجب أن يتم الزواج فى أقرب فرصة لأننى عرضة للنقل الى الخارج فى أول حركة قادمة ·

ـ عندك فكرة عن المكان المحتمل أن تنقل اليه ؟

ـ فرنسا تصورى أن يمضى شهر العسل فى باريس !

ـ يا له من خيال ! ، ولو أن ابنى سيبقى فى كفر الشيخ ·

ـ سوف ترينه يوما وهو رجل كامل ، أما اذا قامت الحرب ·

ـ لن يتم النقل ، هذا كل ما هنالك ··

ـ لن يمكن التكهن بشىء ·

ـ سنبقى هنا غالبا وليس فى هذا ما يضير ·

ــ آه يا عزيزتى هل تدركين معنى ضرب بلد كبلدنا بقنابل الطيارات ؟

ــ لماذا يضربوننا ؟ ! لسنا أعداء لأحد ٠

ــ سوف يتداعى كل قائم للخراب ٠

ــ لا أصدق هذا ٠

ــ لماذا ؟

ــ قلبى مطمئن فى صدرى ٠

ــ ما أجمل أن يطمئن انسان فى هذه الظروف !

ضحكت فى رقة بالغة وسألته :

ــ هل عرفتنى فى رأس البر من النظرة الأولى ؟

ــ طبعا ٠

ــ اذن لم أتغير كثيرا ؟

ــ أنت أجمل مما كنت ان يكن ذلك ممكنا ٠

ــ لا تبالغ ، ألم تترك سن المبالغات ؟

ــ الحب لا يعترف بالزمن ٠

ــ أنا لم أسافر الى الخارج من قبل ٠

ــ باريس ! ، عروس الدنيا ، صدقينى ٠

ــ فرنسيتى ليست على ما أود ، ربما التحقت بمعهد مناسب ٠

ــ أما اذا قامت الحرب ونحن فى باريس ؟

ــ الحرب أيضا !!

ــ لتقم الآن اذا كانت تنوى ذلك ٠

ــ فى باريس يمكن أن نرحل الى بلد محايد كسويسرا ٠

ــ كل شىء يتوقف على ما يصيب وطننا هنا ٠

ــ أنا مطمئنة كما قلت لك ، ولكن لماذا تقوم الحروب ؟

ــ العداوات ، الألمان يستعدون لهذا اليوم منذ أكثر من عشرين سنة ٠

ـ عشرون سنة ! ، اذن كيف يمكن أن تنسى عداوة ؟
وهو يضحك :
ـ الناس لا ينسون العداوات ولكن من حسن الحظ أنهم يتزوجون رغم ذلك !

غادرا الحديقة وهي تتأبط ذراعه ، • وشقا سبيلهما بين الموائد في محل بيجل الداخلي حتى انتهيا الى شارع سليمان . ورغم الحرارة المرتفعة جرت نسمة الليل وومضت في السماء مئات النجوم فوق هامات العمـــارات الشاهقة • واقتربا في طريقهما من قهوة ليموند • كان يقف عند مدخلها ماسح أحذية مائلا الى الجدار في تراخ ، يقبض بيد على صندوقه ويعبث بالأخرى بشـــارب ثائر غليظ كأن شعيراته قدت من أسـلاك حديدية • ربعة ملىء ، يرتدي فوق جلبابه سترة محلاة ببطاقة خضراء تحمل اسم القهوة بأحرف بيضاء • وظهر عند رأس عطفة جانبية ملاصقة لجدار القهوة رجلان بجلبابان • نادى أحدهما ماسح الأحذية قائلا :

ـ يا عم •• من فضلك ••

استقام الرجل في وقفته ثم اتجه نحو الرجلين اللذين وقفا داخل العطفة بعيدا عن أنوار الشارع • وبلغ ماســح الأحذية موقف الرجلين عندما كان حامد وسهام يمران بحذائه • وبغتة رفع الرجل الذي ناداه يده بهراوة الى أقصى الذراع ثم هوى بها بكل قوة فوق رأسه • صرخ الرجل متراجعا الى الشارع وقد سقط الصندوق من يده • وتشبثت سهام بذراع حامد وهي ترتعد • وفي نفس الوقت رفع الرجل الآخر يده بهراوته وهوى بها فوق رأس الرجل المترنح فوقع على ركبتيه متأوها :

ـ آه •• انجدوني ••

تتابعت الضربات من الرجلين بسرعة في قســوة وعنف واصرار حتى تهشـــم الرأس وغرق في بحــيرة من دماء •

وحملقت سهام في المنظر الدموى بلا ارادة ثم شهقت وتداعت مغمى عليها فتلقاها حامد بين ذراعيـه • وارتفع الصياح ، وهرع أناس الى المكان من جميع الجهـات ، وهب الجالسون على الطوار من رواد القهوة وقوفا يتطلعون ، ثم قدم شرطى جريا وهو يصفر •

لم يجر القاتلان • لم يحاولا الهـرب قط • وظل كلاهما قابضا على هراوته الملطخة بالدماء وعيناهما تعكسان نظرات وحشية متحجرة • وقال أكبرهما :

ـ نحن تحت أمر الشـاويش ولكن حذار أن يقترب منكم أحد •

حمل حامد سهام بين ذراعيه ومضى بها الى مشرب عصير قريب من القهوة • أجلسها على مقعـد فى أقصى المحل وراح يربت على خديها برفق • وسأله صاحب المحل :

ـ أطلب الاسعاف ؟

فأجاب وهو يبلل منديله بالماء :

ـ انتظر لحظة من فضلك ، ربمـا افاقت دون حاجة الى مساعدة ••

وجعل يمسـح بالمنديل المبلل وجههـا وعنقها حتى عجن البودرة بالأحمر بالكحل ، هـذا والضجة فى الخارج تتزايد وسباب يتبادل بلا حساب • وفتحت سهام عينيها • رنت بها الى وجهه فى ذهـــول • وقلبتهما فى الوجوه بدهشـة ، ثم غمغمت :

ـ أنا تعبانة ••

فقال لها وهو يواصل مسح وجهها ليزيل عنه الأصـباغ تماما :

ـ سآتيك بكوب عصير ••

شربت قليلا فيما يشبه التقزز وغمغمت مرة أخرى :



.. وبلغ ماسح الأحذية موقف الرجلين
عندما كان حامد وسهام يسـيران بحذائه

ـ منظر فظيع لا يمكن أن ينسى ..

ـ سينسى كل شىء حتما .

ـ ووقع الضربات على الرأس .. آه ..

ـ شدى حيلك ، يجب أن نذهب .

واذا بصرخة تفلت منها وهى تشير الى قميصه بعصبية متذعرة . نظر فى مرآة فرأى رشاشا من الدم قد لوث أعلى قميصه فتقلص وجهه ورأى مثله فوق صفحة حقيبتها البيضاء وثنية شالها . بل منديله للمرة الرابعة وراح يزيل آثار الدم عن القميص والحقيبة والشال فهتفت :

ـ هل لوثنى أيضا ؟

ـ لم يعد هناك شىء ، انظرى بنفسك .

عاودتها الرعدة فقال بجزع :

ـ لا شىء خطير البتة ، لسنا أطفالا على أى حال .

ـ لا تترك نقطة واحدة .

ـ طبعا .. طبعا .. استريحى واهدئى .

اغمضت عينيها فى اعياء واستسلام ، ورجع الناس من مكان الحادث الى مقاعدهم وهم يتبادلون التعليقات فسأل صاحب المحل الذى لم يستطع مغادرته :

ـ كيف حال جاد الله ؟

ـ مات وشبع موتا ..

ـ مسكين ، لكنه رجل طيب ولا أعداء له ؟

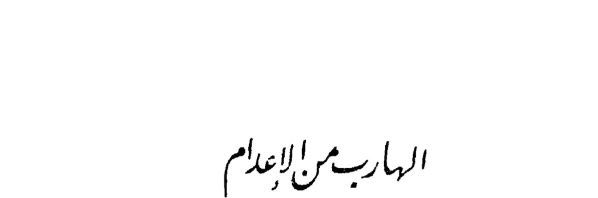
ـ القاتلان ليسا من البلد ، صعيديان من أبنوب !

ـ ما له وابنوب ؟ .. عرفته هنا منذ عشرين عاما .

ـ ثأر قديم ، هذا مؤكد .

وقال رجل بلهجة تلخيصية :

ـ لعله جاء من بلده هاربا ، ثم عثروا عليه فانتهى عمره الليلة ، حكاية لم تعد تدهش أحدا ..


الهارب من الإعدام

غزا الجيش الألمانى الأراضى البولندية ٠٠٠

انطـلق الخبر من راديو مثبت فى كوة بجدار الحجـرة الوحيدة القـائمة فى الخرابة ، وترامى خارج الأسـوار فى أرض الخفير الواسعة ، وصاح دحروج بحدة :

ـ هس ٠٠ اسمع انت وهى ٠٠

سكت عن الزياط الولد وأخواته الثلاث ٠ ولما رأوا الجد فى وجه أبيهم تسللوا بين أكوام الخردة واطارات السيارات وقطع الغيار الى الطرف القصى من الخرابة ، وهناك واصلوا لعبهم فى أمان ٠ وتوقفت آمنة عن نشر الغسيل رافعة رأسها فوق الحبل المعـلق ما بين قضيب بنافذة الحجرة وسـقف لورى قديم وصاحت بزوجها محتجة :

ـ أفزعت العيال ، ملعون الراديو وأخباره !

تجاهلهـا دحروج فى غير ما غضب وأخذ النفس الأخير من عقب سيجارة ممسك بأنمليه ثم قال :

ـ اذن هى الحرب !

أدرك سلامة أن الكلام موجه اليه فرفع رأسـه عن عجلة كان يعالج اطارها وحدج الرجل بعينين تلتمعان وسط لحيـة سوداء غزيرة تكتنف الوجه وتسترسل حتى الرقبـة ثم قال باستهانة :

ـ نعم ، أخيرا صدقوا ٠

وانتهز سـلامة فرصة تحول رأس دحروج نحو الصوت فاسترق الى المرأة نظـرة استقرت فوق وجههـا المشرئب ثم انحدرت الى جسمها الممشوق الريان الصدر ٠ ولمحته المرأة قبل أن يستردها كأنما توقعتها وسرعان ما ولتـه ظهرها ٠



.. فرفع رأســه عن عجلة كان يعالج اطارها
وحدج الرجل بعينين براقتين تلتمعــان وســط
لحية سوداء غزيرة تكتنف الوجه .

انحنى الرجل فوق العجلة وهو يقول لنفسه ما أفظع الحرب في حرارة أغسطس ، ما أفظع الحرارة ! • والتفت دحروج نحوه وهو يقول :

ـ طالما تنبأوا بأنها ستخرب العالم ، ماذا عنا نحن ؟

أجاب السنى باسما :

ـ نحن بعيدون ، فليأكل بعضهم بعضا ••

وضع رجلا على رجل وهو يجلس على صفيحة مقلوبة ونظر الى بعيد نظرة حالمة ثم قال :

ـ سمعنا الأعاجيب عن الحرب الماضية •

فقالت آمنة ضاحكة :

ـ أصلك عجوز !

فضحك دحروج عن أسنان سود قائلا بسخرية :

ـ أنت لا تهتمين الا ببطنك ••

وقال سلامة وكان رغم تجاوزه الشباب يصغر صاحبيه بعشر سنوات على الأقل :

ـ حقا سمعنا الأعاجيب •

ـ الأسيوطي من هو ؟ ، كان قبل الحرب شيالا !

ورجع العيال ناسين الوعيد فرجعت الضوضاء ، وجرى محمود ابن السابعة ـ وهو البكرى ـ وهن في ذيله فرمقه أبوه باعجاب وصاح به :

ـ ولد يا محمود شد حيلك ، الحرب قامت !

وعند الأصيل جلس دحروج وسلامة على خيشة متجاورين خارج سور الخرابة • ترامت أمامهما الصحراء حتى سفح الجبل ، منطفئة الرمال تحت الظل ، وانداحت في السماء الصافية صفرة باهتة هي بقية أنفاس القيظ المختنقة • وثمة شعاع وان من الشمس المائلة يتسلق هامة الجبل في عجلة ،

على أن الصحراء تزفر هواء منعشا باقتراب المساء · وراح دحروج يعد القروش والسنى مسند الرأس الى جدار السور سارح البصر فى الأفق · وجاءت آمنة بالشاى وجرى العيال الى الخلاء حفاة نصف عرايا · ورشف دحروج قليلا من الشاى الساخن وهو يقول :

ـ قلبى يحدثنى يا سلامة بأن الشغل سيضحك عاليا ·

ـ ليصدق قلبك يا أبو محمود ·

ـ ليتنى أستطيع أن أعتمد عليك ·

ـ صديقك ·· وأسير شهامتك ·· ولكن لا يمكن أن أبرح الخرابة ! ·

تفكر دحروج قليلا ثم تساءل :

ـ هل يعرفك أحد فى المدينة الكبيرة خلف هذه اللحية ؟

ـ انهم يعرفون الجن ·

ـ وهل ينقضى عمرك فى الخرابة ؟

ـ هى خير من حبل المشنقة يا أبو محمود ! ·

أطلق دحروج ضحكة عالية ثم قال :

ـ يحق لى أن أضحك كلما تذكرت حكاية هربك من بين حارسين !

ـ خير الهرب ما وقع حيث لا ينتظر ·

فقالت آمنة وهى واقفة مستقبلة الخلاء وقد انحسر شالها عن نصف رأسها الفاحم :

ـ وانعدم الرجل بلا دية !

فقال سلامة بنبرة غاضبة :

ـ كان قاتلا ابن قاتل ، وقد تقدم به العمر حتى خفت أن يسبقنى الموت اليه ، ولم يكن يكف الأهل عن مطالبتى بالثأر !

فقهقه دحروج عاليا ثم قال :

ـ وهربت والأوراق محمولة الى المفتى ··

شد سلامة على ذراعه بامتنان قائلا :

ــ وجدت نفسى ضائعا فقلت ليس لى الا دحروج صديق صباى فاويتنى يا شهم الرجال ·

ــ نحن رجال يا سلامة ·

ــ على أى حال فالمخزن هنـا فى حاجة الى رجل وانى رجله ·

وقطع حديثهم ظهـور جنازة فى الأفق قادمة من ناحيـة العمران · مضت تتقدم نحو الطريق المحاذى لسور الخرابة الغربى المفضى فى نهايته الى قرافة الخفير · ووضح النعش مسجى بغطاء من الحرير الأبيض فتمتمت آمنة :

ــ شابة صغيرة يا حسرة عليها ·

فقال سلامة :

ــ المكان هنا جميل وآمن فلا عيب فيــه الا أنه فى طريق القرافة ·

فتساءل دحروج وهو يضحك :

ــ أليس طريقنا جميعا ؟ !

لم يطـرأ على الخلاء تغير يذكر مذ أعلنت الحرب · ظل ملعبا للشمس من الشروق الى الغروب ، ومعبرا للنعوش ، ومعسكرا للصمت · وأطلقت زمارات انذار فى تجارب غارات وهمية · وارتفعت أهمية الراديو القديم الباهت الى القمـة حتى بات فى وسـع دحروج أن يحصى القنـابل المتبادلة بين سيجفريد وماجينو · وكلما استقبلت حواس سـلامة صوتا منغوما أو حركة لاعبة أو نظـرة ولو غير مقصـودة اخترق باطنه بنار شرهة وغضب فى ذات الوقت على نفسه بلا رحمة · وقال دحروج فى ضجر :

ــ الحال لم تتغير فأين ما سمعنا عن الحرب ؟ !

ــ صبرك ، ألا تذكر ما قال عميلك اليهودى ؟

نظر دحروج نحو أكوام الحديد التى ملأ بها المكان عملا بنصيحة عميله ثم قال :

ــ فلتسرع الأيام ··

ــ فلتسرع ، ولتلتهم خمسة عشر عاما من الزمن !

ــ خمسة عشر عاما ؟ !

ــ فى آخرها تسقط عنى العقوبة !

ــ يا له من عمر ! ، سوف نكون على حافة حرب ثالثة !

وراح يغنى بصوت محشرج غريب « يا بهية خبرينى » ثم هتف :

ــ معلم دحروج ·· لن يبقى من أهلى أحد الا النساء !

وقال ان آمنة تلعب بعقله وهى لا تدرى ، أو وهى تدرى ، وأنه سيدخل الجحيم قبل أن يدركه الموت · ولم تكن الحرب تهمه فى شىء ولكنه سمع بين فواصل من الأغانى أنباء اجتياح هولنده وبلجيكا وسقوط باريس · وتتابعت أمام العين طوابير اللاجئين ، وامتلأ الفراغ بالتنهدات والدموع ، ثم اذا بايطاليا تعلن الحرب · وقال دحروج بقلق :

ــ ها هى تدق الأبواب !

فقال سلامة بعدم اكتراث :

ــ لا علينا ولا لنا ·

وتمتمت آمنة وهى تتابع لعب العيال العرايا حول برميل ملىء بالماء :

ــ ربنا كبير ·

ولأول مرة انطلقت زمارة انذار بغارة حقيقية · استيقظ دحروج وأسرته كما استيقظ ســــلامة فى مرقده باللورى · وأعلنت آمنة عن خوفها على العيـال وقالت ان المخبأ بعيـد فقال دحروج :

ــ ابقى فى الحجرة فلن يضربوا الخلاء أو القرافة ··

ورفع سلامة رأسه نحو البدر الذى يحدق فيهم بهدوئه الأبدى ثم قال :

ـ لا أرى الا أنوارا مجنونة ٠

ومن نافذة اللورى مد بصره الى الحجرة المغلقة ٠ قائمة لصق السور على يسار المدخل بسقف مائل نحو الباب وجدار لا لون له ، مطلية بضوء القمر طاوية جوانحها على قلوب مفعمة بالقلق ، ككوخ مهجور فتخيل أنه جن الليل والخلاء ٠ والغارة تنقض فتهدم كل قائم فى المدينة وتطيح بالقانون والمفتى والقاضى والسجان وحبل المشنقة ٠ ويتفجر باطن الأرض وتجتاح كل شىء حتى الشهامة تختنق أنفاسها ٠ وينهض من بين الأنقاض رجل عار وامرأة ممزقة الثياب وقد قتل الرقباء ٠

وتلاحقت الغارات ليلة بعد أخرى ٠ غارات صامتة كالخلاء أو تتخللها مدافع مضادة ٠ واعتاد دحروج فى أثناء الغارة أن يذهب الى سلامة فى اللورى ليشاهد السماء ويتحادثا :

ـ ليست الغارات كما سمعنا !

ـ الطليان ليسوا كالألمان ٠

وضحك دحروج وقبض على لحية سلامة قائلا :

ـ أنت مغالط عزرائيل فى عمرك !

ـ نعم ، كان ينبغى أن أكون فى القبر منذ عام ونصف عام على الأقل ٠

ـ ولذلك فأنت لا تخاف الموت ؟ !

ـ بل أخافه منذ أن شممت رائحته وهم يحملونه الى المفتى !

ـ تصور كيف كان يكون شكلك الآن ؟

ـ أحمد الله الذى لمهلنى حتى ارى الأنوار الكشافة والمدافع المضادة ..

ودب نشاط جديد فى الخرابة ثم تضخم بحال لم يحلم بها دحروج من قبل . ومضى يغيب عن المكان ساعات كل يوم ثم استغرقت الأعمال الخارجية نهاره كله . وعمل سلامة فى الخرابة بكل همة كحارس وكخزان . وفى أوقات الفراغ يجلس على اطار من المطاط مسند الظهر الى رفرف اللورى الخلفى ، يدخن سيجارة أو يمشط لحيته ، وعيناه الحادتان تذعنان فى مطاوعة متزايدة لرغباته الجامحة . وقال انها تتجاهل عينيه ولكنها شديدة الاحساس بهما طوال الوقت ، وان نظرته الثاقبة تسيطر على حركاتها وسكناتها كأنما تلعب بهما بخيط خفى . ونظر الى السماء يتابع حداة تجول جولة الوداع عند الأصيل ثم نظر أمامه فرآها واقفة على مبعدة أمتار منه تجاه الصنبور الذى تدفق منه الماء الى صفيحة . وقال :

ـ كان يوما شديد الحرارة ..

هزت رأسها بالايجاب ، ونظرت الى عينيه المحدقتين ثم غضت بصرها وهى تدارى ابتسامة . اكتسحت الابتسامة وازع الشهامة فى صدره فاجتاحه اعصار . وتنهد بصوت مسموع فزجرت المرأة محمود الذى جذب أخته من ضفيرتها عند الباب .. وسألته :

ـ أعد لك الشاى ؟

فقال بنبرة تمرست على سيطرته :

ـ من المنتظر أن يسافر قريبا الى الشرقية !

ورجع دحروج مع المساء . بدا متعبا معفرا ولكن النجاح تألق فى عينيه . وضحك عاليا وهو يقول لسلامة :

ـ يا ولد العم ، ليست الحرب كما يقولون ، الحرب نعمة كبرى !

وأعطى آمنة لفافة لحم كبيرة قائلا :

ـ أسرعى ، لم أذق اليوم لقمة واحدة ٠

ومن داخل الحجرة وهو يغير ملابسه ارتفع صوته :

ـ سأسافر غدا الى الشرقية ٠٠

غاب يومين وعند أصيل اليوم الثالث انتظره سلامة فوق الخيشة خارج السور ٠ جلس هادئا ثقيل الجفنين ، يتخلل لحيته بأصابعه ، يحصى الحدأ المتخلفة ويبادل الخلاء فتورا واستسلاما ٠ وتراءى اليه من الداخل صوت آمنة وهى تنهر العيال بصوت هزه المرح فرنا الى ذيل الشمس الآخذ فى الانحسار عن قمة الجبل وقال ان الليل لن يلبث أن يجثم ٠ ولفته صوت من الغرب فرأى تاكسى قادما حتى وقف عند نهاية السور ثم غادره دحروج ٠ اقترب الرجل وهو يضرب الأرض بقدم ثقيلة ثابتة ورأسه مرفوع ٠ استقبله واقفا فتصافحا ثم لكمه الرجل فى صدره وهو يضحك قائلا :

ـ سلامة يا بن زينب ، الانجليز رجال !

رمقه مستطلعا فاستطرد الآخر فى مباهاة :

ـ وأصلهم من الصعيد ٠٠ !

فدعا له بالمزيد من التوفيق ٠ ودخل الرجل الخرابة صائحا بفرح كالأطفال :

ـ ولد يا محمود ٠٠

وراح يغنى « سلم على » وهو يفرقع بأصابعه راقصا ٠

وعوت الزمارة قبيل الفجر فمضى دحروج وسلامة الى الخلاء خارج السور كما تعودا أن يفعلا أخيرا ٠

وقال دحروج :

ـ لم تعد الزمارة تخيف أحدا ٠

انسـابت الصحراء تحت ضـوء القمر مرتعا للأحلام ٠ وضحك دحروج طويلا حتى سأله سلامة عما يضحكه فأجاب وهو يومىء بكوعه الى الحجرة :

ـ شهدت هذه الليلة عمك دحروج كما كانت تشهده ليالى الشباب !

وحل صمت قصير مسـقوفا بأنوار الكشـافات ثم عاد دحروج يقول بلهجة جادة وأخوية معا :

ـ سـلامة ٠ ليس اليوم كالأمس ، سـيجىء كثيرون من العملاء الجدد ، أخشى عليك !

سأله سلامة واجما :

ـ هل ينبغى أن أذهب ؟

ـ نعم ، سأهربك الى فلسطين ، وستعمل هناك لحسابى ، ما رأيك ؟

ـ الرأى رأيك ٠٠

قال بثقة :

ـ كل شىء مرسوم يا بن زينب !

وفجأة ارتجت الأرض بزلزال ودوى انفجار شل خفقان القلب ٠ شد دحروج على ساعد سلامة بعصبية :

ـ ما هذا ؟

أجاب سلامة ووجهه يشحب فى ضوء القمر :

ـ قنبلة ! ٠٠ أسرع الى الحجرة ٠٠

وارتفعت صرخة آمنة فصاح بها دحروج :

ـ مكانك ٠٠ مكانك يا آمنة ٠٠

واذا بالضرب يتتـابع بلا توقف ٠ جرى الرجلان نحـو الـخرابة ٠ وفى اللحظة التـالية ندت صرخة عن دحروج ثم سقط على وجهه ٠ هتف سلامة :

ـ معلم !

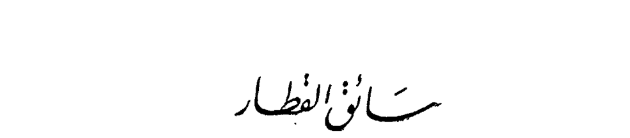
وانحنى فوقه ليساعده على القيام ولكنه لم يستطع شيئاً ٠
وانطرح فوقه بلا ارادة ٠ وانغـرزت جبهتـه فى الرمال ٠
وهبطت الأرض ٠ وارتفع جناح الصحراء صـوب السماء ٠
وشىء كثيف حجب وجه القمر ٠

ــ ماذا بك يا دحروج ؟

ونادى صوت ثم ابتلع الظلام كل صوت وكل لون ٠

وأراد سلامة أن يقول لصـاحبه : سـامحنى لقد غلبنى النوم ٠٠

ولكنه لم ينبس بكلمة واحدة ٠


سائق القطار

كل شيء يجرى الى الوراء • الصفصاف وأعمـدة البرق تجرى بسرعة فائقة أما الأسـلاك فتسبح بلا توقف هابطـة صاعدة • وعلى مدى البصر تغمر الشمس غير المرئية الحقول والجداول وقطعان البقر والجاموس وابناء الأرض • ود" أن يستسلم لتيار المناظر ولكن حناجر الجيران الزعجة أبت عليه ذلك • ما بالهم محتدين • لـماذا يغطى صخبهم على صـوت الديزل ! • وحول عينيه الى الداخل فرأى الى يمينـه رجلا بدينا ذكرته هيئتـه بدب ، وعلى المقعـد المزدوج أمامه جلس رجل له وجه صقر وامرأة حسناء تابعت حديثهما الصـاخب بضيق وحرج واضحين • وقال الصـقر مخاطبا الدب بحدة وانفعال :

ـ لا تحاول عبثا •• !

واشتد بريق عينيه الجاحظتين وتجمع فى ركنى فيه زبد أبيض وسرت تقلصات عصبية فى شاربه المقوس كهلال مقلوب. وبدت الحسـناء وادعة كحمـامة ولكنهـا فى خلال المناقشة الحامية هجرت فوق الرف ، ثم تطوعت لتلطيف الجو فخاطبت الصقر قائلة بصوت ناعم :

ـ أعطه فرصة •• اسمع رأيه ••

فصاح بها :

ـ لا تتدخلى •• أنا هو أنا ••

تراجعت بجمالهـا ونعومتها ويأسـها • وفى أثنـاء ذلك التقت عيناها بعينى الغريب الجالس الى جوار النافذة وكأنما آلمها أن تعامل امامه كطفلة • ويقدر ما أسف الغريب لحالها



فصاح بها : لا تتدخلى ... أنا هو أنا

بقدر ما بهره جمال عينيها وهما ينفذان فى عينيه • وقال الدب فى هدوء نسبى ولكن بصوت ذى رنين منفر :

ــ على أى حال فالناس للناس •

ــ هراء ! أنا أتعامل مع جميع أنواع للحيوان أما ذلك الانسان ••

ولوى بوزه بازدراء لا حد له فسأله الآخر :

ــ هل علمت بما جرى له فى الفترة الأخيرة ؟

ــ أنا أعرف أقصر طريق بين نقطتين !

ــ ستجد فى النهاية أن يدك اليمنى تضرب اليسرى •

فلوح بيده غاضبا وهو يقول :

ــ اننا لا نتردد عن بتر اليد أو الساق عند الضرورة !

آه •• لا سبيل الى الاستمتاع بالمناظر الخلابة فى الخارج • ومهما تتجاهل المعركة السخيفة التى انحصرت فى مجالها فسوف تلاحقك كضربات المطرقة • لن تنسى الزبد المقرف وحتى رنوة العين الصافية لن تدعك فى سلام ! • والحال تؤكد أن احتدام المعركة لن ينقطع كدوى عجلات الديزل المتواصل فى روتين مسقم ، وليس ثمة مقعد خال فى العربة يمكن الهروب اليه •

وطرح رأسه على مسند المقعد وأغمض عينيه • وكأن الله استجاب لدعاء خفى فأخذت المناقشة تستهلك نفسها بنفسها فخفتت الأصوات ثم حل صمت عجيب مريح ، وقد خلا كل الى تياره • بديع كحلم • واللعنة على الرجل العنيد وعلى كل خصام • وفتح عينيه ربع فتحة مسترقا نظرة من الوجه الرائق فرآه منبسطا قد زايله الحرج والخجل وشعور المذلة • وعلى حين راح الدب يشخر انهمك الصقر فى مطالعة جريدة ، وتجلت فى عيني الحسناء نظرة هادئة كأول اشراقة للصباح ، متمادية فى الحلم لا تنظر الى شىء بالذات • وفتح عينيه

نصف فتحة فالتقت عيناها اليه مستجيبة فيما بدا لاحساس خفى • وقال لها – فى باطنه – كم أحب منظرك ، فحولت عنه عينيها فى شبه رضى حتى عجب لقوته السحرية • وانتبه الى ما حوله أقصى انتباه ، ولما اطمأن الى غفلة الصقر ونوم الدب ملأ عينيه منها بنهم ، فرأى فيما رأى خاتم الزواج فى يسراها المستكنة على يمناها فوق بطنها • وما لبث الصقر أن نحى الجريدة جانبا ومال برأسه الى الوراء ثم استغرق فى النوم • وتولاه شعور بالأمان عجيب كأن الدنيا قد خلت بعد نوم الرجلين خلوا تاما • وانبعثت من أعماقه جسارة واستهانة فواصل حديثه الباطنى بعينيه الى أبعد مدى • وقامت المرأة وهى تبتسم ابتسامة لا ترى عادة الا بالقلب ومضت نحو مدخل العربة • وباندفاع لا روية فيه قام ثم تبعها على الأثر• ولم يكن بالمدخل أحد سواها ، ولم تدخل دورة المياه كما توقع ولكنها وقفت وراء الباب المحكم الاغلاق رانية الى الحقول ، ولما سمعت وقع قدميه التفتت نحوه عفوا فانتهز الفرصة وحياها بهزة قصيرة من رأسه • أعادت رأسها الى موضعه الأول دون رد ودون اعتراض كذلك فقال متشجعا :

– لاحظت بأسف شديد التنافر الواضح بين طبعك الهادىء والجلسة المزعجة !

وافقت على رأيه بمزيد من الصمت الراضى فضحك ضحكة قصيرة خافتة وهو يهمس :

– الوقوف هنا أجمل •

عند ذاك تمتمت :

– أظننا أزعجناك أكثر مما يحتمل •

ولشعوره بقصر الفرصة المتاحة سألها :

– حضرتك من القاهرة ؟

هزت رأسها بالنفى • وبعد وقفة قصيرة قالت :

ـ من طنطا ، وحضرتك ؟
هزه السؤال الايجابى حتى الأعماق فقال دون تردد :
ـ أنا من القاهرة ، أيمكن أن أعرف عنوانك ؟
ـ لا فائدة ، نحن نقيم فى العزبة ··
ـ ربما سافرت الى القاهرة فخذى رقم التليفون ··
ـ لا فائدة ··
وبعد أن ألقى نظرة على الباب المغلق قال بحرارة :
ـ ان ما بى هو الجنون بعينه ، لا يمكن أن نسلم بالفراق دون مقاومة ، أنت تفهمين ذلك ؟
ـ نعم ··
ارتفعت حرارة حماسه الى القمة وهو يقول :
ـ يخيل الى أنك غير سعيدة ··
ـ نعم ، جميـــع ما حولى مرعب مقــزز ، أود أن أطير بعيدا ··
ـ اذن طيرى ·
حدجته بنظرة متسائلة تروم أملا فقال :
ـ نغادر الديزل فى دمنهور ·
ـ أهرب !
ـ نعم ، لا وقت للتردد ··
ـ وبعد ذلك ؟
ـ دعى الباقى لى ·
ـ ربما استيقظ قبل ذلك ، هو أو الآخر ··
ـ سوف يظنك بدورة المياه ··
ـ ولكن ··
ـ لا لكن ، سنحاول ، هى فرصتنا على أى حال ·
ـ لكن لا أحد منا يعرف الآخر !
ـ ما عرفناه حتى الآن أهم بكثير مما لم نعرفه بعد !

وفتح الباب قيراطا لينظر الى داخل العربة ولما وجد كل شيء هادئا أغلقه ثم نظر في الساعة وقال :

ـ لدينا دقائق قبل دمنهور ، سآتي بحقيبتي الصغيرة ٠

ورجع بعينين ملتمعتين ووجه شديد الاصرار فقال بقلق :

ـ القطار لم يهدىء من سرعته !

فنظر في الساعة مرة أخرى وقال :

ـ لعلى أخطأت في التقدير ٠

العكس حصل اذ زادت سرعة الديزل زيادة محسوسة غير متوقعة وما لبثت المرأة أن هتفت :

ـ انظر !

مشيرة الى محطة دمنهور وهي تجرى بسرعة فائقة الى الوراء ككل شيء في الخارج :

ـ كيف لم يقف في محطة دمنهور ؟ !

واذا بباب العربة يفتح ، ورجل يندفع منه نحو باب العربة التالية وهو يصيح بأعلى صوته :

ـ السائق جن !٠٠ وسيهلكنا جميعا !

استدارت المرأة في ذهول وتبادلت مع الرجل نظرة حائرة ، وترك الرجل حقيبته ثم فتح باب العربة ناظرا الى الداخل فرأى جميع الركاب واقفين في حال من الاضطراب والذعر لا توصف ٠ وقد فتحت النوافذ جميعا واختلطت الأصوات وارتفعت في هلوسة ، ورأى الصقر وهو يصرخ غاضبا وفي ذات الوقت ينظر حواليه باحثا ـ فيما أعتقد ـ عن المرأة ، فأراد أن يحذرها ولكنه سرعان ما نسى ذلك واندفع نحو الداخل سائلا عما هنالك فلم يسمع صوته فشق سبيله بعسر شديد نحو العربة التالية صائحا :

ـ أين المفتش ؟ ٠٠ أين رجال القطار ٠٠ ؟ !

ومد يده ليفتح الباب فانفتح قبل أن يلمســه وهرول الى الداخل رجل صائحا :

ـ السائق اعتدى على مساعده وقذف به خارج حجرته !

فسأله بأعلى صوته :

ـ قبضوا عليه ؟

ـ أغلق بابه دونهم ودفع القاطرة الى آخر سرعة ..

وارتطم الصياح بالصوات ، ورغم الضجة المدوية سمع صوتا يقول :

ـ ستنفجر القاطرة أو يقع اصطدام قاتل .

ـ والعمل ؟ .

ـ سيهلك الجميع ..

اندفع من البــاب مخترقا البوفيــه الى المدخل المتصــل بحجرة السائق المغلقة فرأى المفتش ورجال القطار ونفرا من الركاب ، وسمع أحدهم يسأل :

ـ ما العمل ؟

فأجاب المفتش :

ـ نحن نفكر فى كل شىء .

ـ وهل ثمة أمل ؟

تجاهل المفتش الســؤال ثم رفع يده داعيــا الجميع الى السكوت فأطبق الصمت ، ثم راح يطرق البــاب المغلق بيــده هاتفا :

ـ عبد الغفار أصغ الى ..

فجاء من الداخل صوت كالرعد :

ـ لا تحاول ... عبثا ..

فصاح المفتش :

ـ يجب أن تسمع لنــــا .. لا شــأن للنــاس بمشاكلك الخاصة .

ـ أنا هو أنا !

ـ عبد الغفار ‥ ما ذنب الناس ؟ ، معك رجال ونساء وأطفال ‥ كلهم أبرياء !

ـ هراء !

ـ ارجع الى عقلك قبل فوات الفرصة ٠

ـ هراء !

ـ تذكر ربك ، ألا تخشى لقاءه ؟

ـ هراء !

ارتفعت درجات الذعر الى غير حد ، وتفشى الاضطراب فى كل موضع ٠ وبذلت محاولات يائسة لدفع الباب أو تحطيمه ولكنها سرعان ما توقفت عندما هدد السائق بتفجير القاطرة ٠ وأغمى على كثرة من النساء وبعض الرجال ٠ وفقد شاب أعصابه فرمى بنفسه من احدى النوافذ مودعا الحياة بعواء ظل صداه يتردد طويلا ٠ ونشبت معارك غريبة لم يعنى أحد بفضها أو معرفة بواعثها ٠

واقترب الرجل من كبير المفتشين وزعق به :

ـ أليس هنالك من حيلة ؟

فأجاب الرجل بصوت لا يقل عنه درجة واحدة :

ـ جربنا كل حيلة !

ـ أيعنى هذا أن نفنى جميعا لا لسبب الا ‥٠

وشعر بذراعين تطوقانه من خلف قبل أن يتم جملته فالتفت فى ذعر واضح فرأى المرأة تطالعه بوجه مخطوف وبصر زائغ فصاح بها بغيظ لم يحاول اخفاءه :

ـ تشددى ‥ لا وقت لهذا ‥

فقالت بصوت مخنوق :

ـ أين أنت ! ، جن زوجى فخنق أخى ثم راح يضرب رأسه فى الجدار ‥

قال بضيق وكأنه لم يسمع شيئا :
ـ نحن نجرى بسرعة جنونية نحو الفناء ٠
ارتمت بين يديه مغمى عليهـا فقطب فى حنـق ، ثم مضى يجررها الى ركن المكان فأنامهـا على الأرض بسرعة آليـة بأردة ، ولما عاد الى المفتش وجده يصرخ ويشـد شـاربه ويبكى ! ٠ ودق الرجل الباب بقبضتين مجنونتين هاتفا :
ـ يا عبد الغفار ٠٠ يا عبد الغفار ٠٠
فجاءته الاجابة كطوبة :
ـ أنا لا أعرفك ٠٠
ـ ولكنك ستقتلنى ٠٠
ـ هذا شأنى ولا علاقة له بك !
ـ أنا لم أسىء اليك ، لا أنا ولا الآخرون ٠
ـ لكنكم ركبتم قطارى ٠
ـ قل قولا معقولا ٠٠
ـ أنتم المجانين !
ـ أليس لك أبناء ؟
ـ كلا ٠
ـ ألا تحب الحياة ؟
ـ كلا ٠
ـ أليس فى قلبك رحمة ؟
ـ كلا ٠
ـ خبرنى ما ذنبنا ؟
ـ أنتم تحبون الديزل ؟
ـ اطلب ما تشاء ٠
ـ ها أنا آخذ ما أريد بغير طلب ٠
وبصق المفتش على الباب صارخا :
ـ يا عبد الغفار يا مجرم يا وضيع يا غادر يا وحش !

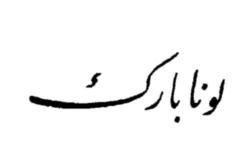
وقرر الرجل أن يمضى الى نافذة ليرمى بنفسه منها وليكن ما يكون · وهو يتحول عن موقفــه وقعت عينـاه على المرأة المستلقية فى غيبوبة فقال ما أســعدها فى غيبوبتها · ووجد الركاب متكتلين يســدون المنافذ · توحدوا فى ذهــول ورعب وارتجاف · عبثــا حاول أن ينفــذ من بينهم · ولما يئس رمى بنفسه عليهم وسرعان ما تلقته الأيدى بالضرب فانهال عليهم بدوره ضربا حتى لفهم الجنون جميعا · واذا بالواقعة تقع · وقعت الصدمة المتوقعة كأنهــا ارتطام كونى · اندفع النــاس بقوة جهنمية فحطمت الرءوس ، وطحنت الجدران الأجساد · صرخ الرجل بأعلى حنجرته ورأى النجوم تتهــاوى من حوله وصرخته تدور فى فراغ أحمر ·

فتح عينيه ودوى صرخته يجعجع فى أذنه !

آه ·· انه لا يصدق · اعتدل فى جلسته وهو يظن صرختـه قد مزقت الآذان · ولبث هنيهة لا يجرؤ على النظر الى أحد · ثم أخذ يسترق النظر فى حذر شــديد فلم ير أحدا شــاعرا له بوجود · تنهد من الأعمــاق · وما لبث أن تنبه الى اســتمرار النقاش الحاد بين الصقر والدب ·

ورأى المرأة نصــف مغمضـــة العينين غارقة فى الضجر · اللعنة ·· اللعنة · وكان الصقر يتحدى صاحبه قائلا :

ــ دعك من ضرب الأمثال العقيمة ، لا تضيع وقتى سدى ، أنت تعلم أن أنا هو أنا ·· !


لونا پارک

تحرك ببطء فى طابور طويل طاويا تذكرة الدخول فى يده • تذكرة أهداها اليه أبوه وكانت فى الأصل ضمن الهدايا التى توزع باسم مدير لونابارك • تحرك فى عالم غريب مكتظ بالبشر فتلقت فى وقت واحد فيضا لا نهاية له من الأصوات والأضواء والروائح العطرية والعرق وضغط الأجساد • ومضى يتزحزح خطوة فخطوة فى المدخل الممتد على هيئة بوق حتى خرج من فوهته وقد زهقت منه الأنفاس • وجد نفسه فى ساحة يطوف بها نسيم رقيق وتطوق بجناحيها أشجار متوسطة مغروسة فى أصص كبيرة فاتجه نحو طريق ضيقة تقوم على جانبيها دكاكين الأطعمة فأفضت به الى الملعب الكبير • فى الفرج الذى جاء بعد الضيق شعر بأنه ولد من جديد ، وهكذا بدأ رحلته • وصمم على تجربة كل لعبة فانه لم يتكبد مشقة المجىء ليبقى متفرجا • وصادفه مربع الأراجيح ، وكان أكثر رواده من الأطفال ولكنه لم يخل من مغامر شاب ، واذا به يتخذ موقفه فى القارب الحديدى قابضا بيديه على العمودين ، ويدفعه بحركة ذاتية فيصعد به ويهبط محييا ذكريات جميلة • وغادرها وهو راض عن نفسه تماما فابتاع بسكويتة دندرمة ومضى فى رحلته •

وللحال جذب انتباهه فرقعة وهتاف ، وصوت الداعى « جرب قوة عضلاتك » • ورأى مدفع القوة يندفع فوق القضيبين الصاعدين نحو الهدف وقد ازدحم وراء الحاجز المتفرجون والمنتظرون لدورهم •

توثبت عضلاته للنضال • وسرعان ما اتخذ مكانه بين المنتظرين وهو يبتسم فى ثقة • ولما جاء دوره تقدم من قاعدة المدفع وتناول مقبضه الصلب ، وراح يدفعه دفعات قصيرة

ليختبر ثقله وسرعته فينطلق الى مدى قريب صاعدا ثم يتقهقر هابطا فيتلقاه من مقبضه مرة أخرى ، ثم شد على عضلاته ودفعه بأقصى قوته فاندفع طاويا القضيبين بسرعة حتى ارتطم بالهدف الفولاذى وفرقعت الكبسولة فى مقدمته · تحول عن موقفه والهتاف يدوى ، ولكنه ذاب فى زحمة أكبر كما ذاب الهتاف فى ضوضاء حلقت فوق المكان كله · وشق سبيلا مبهور العينين بأضواء المصابيح الملونة المتدلية من غصون الشجر حتى استقر أمام كشك لبيع البيرة المثلجة · ومال برأسه الى الوراء وهو يرفع القدح فرأى القمر فى الأفق منخفضا عن البالونات المنطلقة من صارى الملعب ، ولا تميز لنوره فى وهج الأضواء الساطعة ولا عبرة لجلاله فى الضوضاء المكتسحة الصاخبة · شرب حتى ارتوى · واستمع قليلا الى أغنية تنهال من مكبر صوت وهو ينظر من بعيد الى مضمار السيارات المكهربة ·

ومضى الى المضمار بنشاط متجدد · استقل سيارة فبدأ الرحلة المكهربة · اندفعت السيارة بقوتها الذاتية ولم يكن عليه الا أن يوجهها بعجلة القيادة متفاديا اذا شاء السيارات التى تجول حوله كالكواكب · ووقعت ارتطامات عن قصد أو عن عجز فاستمتع بالهجوم وبالهروب على السواء ، حتى رأى سيارة تحمل فتاة قد تكالبت عليها السيارات ناطحة والفتاة لا تنى تضحك · عند ذاك دب فيه حماس جديد فاستجد لجولته معنى ، وطارد سيارة الفتاة والشرر يتطاير من عجلات سيارته · وبدا عسيرا أن يستخلصها لنفسه من المتنافسين ولكنه احتك بها مرة ، والتحم بها أخرى فى عناد فدارا معا حول أنفسهما حتى ألقت به سيارة متحدية بعيدا · وكان عليه أن يدور دورة كبيرة قبل أن يتمكن من استرداد ما فقده غير أن الجرس رن معلنا انتهاء الدورة · ورأى الفتاة تغادر

سيارتها فغادر سيارته · تبعها محاذرا حتى يبعد عن مجال الأعين التى توقع تجسسها عليـه ، ثم أخذ يقترب منهـا · سمعت وقع أقدامه فنظرت وراءها لحظة فداخلته طمأنينة الى النجاح · وأبطأت عند سـياج مطـرز بالياسمين والبنفسج يحيط بمطعم كبـاب مترام فى الهـواء الطلق ففغمتهما رائحة الشواء الدسمة ممتزجة بعبير الأزهار · همس :

ـ أنت سائقة ماهرة ! ·

فابتسمت فقال لنفسه انها جاءت لذلك · وقدم لها ذراعه فترددت قليلا ثم تأبطتها · ودعاها الى قدحين من البيرة · اسمى حسن واسمى سعاد · ودمعت الأعين والشراب البارد ينساب الى الأعماق · وسكب مكبر الصـوت ألف ليلة ، أما القمر فقد ارتفع فوق الصارى نائيا بنفسه عن برج الأضواء وصخب الهاتفين ·

ـ ليلة بديعة ولكن أجمل ما فيها هو أنت ·

ـ أنت ظريف جدا ·

ـ هل يعجبك القطار ؟

ـ ولو أنه مرعب أحيانا !

جلسا جنبا الى جنب فى المقعد الأخير من العربة الأخيرة ، ولحظ ابتسامتها وهو يختار المكان المنعزل فتوترت أعصابه ، وتناول يدها فى يده والقطار يتحرك · سار القطار على مهل حتى اعترضته هضبة فاندفع صاعدا وضاعف اندفاعه وهو يهبط · وجرى بسرعة فوق متتابعات من المرتفعات والمنخفضات فطوقهـا بذراعه · ودار حول منعطف فى تمهـل ماكر وراح يرتقى جبلا فى صمت ينذر بالخطر ، ثم انحط من عل كأنمـا يهوى فى فراغ وارتفع الصراخ · شد على خاصرتها فمـال رأسها الى ذراعه فطبع على شفتيها قبلة طويلة · لم يكد ينتبه



ورأى الفتاة تغادر سيارتها فغادر سيارته ، تبعها محاذرا
حتى يبعد عن مجال الأعين التى توقع تجسسها عليـه .

بعد ذلك الى معاكسات القطار حتى رجع الى المحطة · وقال لها ومشروعات الليل تتواكب فى رأسه :

ــ خير ما نفعل الآن أن نستريح فى مشرب ·

وتبادلا « صحتك » مرة أخرى · وتحرك دبيب النشوة فى قلبه · ونظر فى مرآة مكللة بورد من البلاستيك فوق الطاولة فأعجبه شاربه الأسود وخداه الموردان · وحدثها عن الليل فأحنت رأسها بالايجاب ، ولما غنى الصوت الملائكى سألها :

ــ تحبين الغناء ؟

فأجابت بحماس :

ــ والرقص ·

ــ وأى لعبة تودين ؟

ــ الحظ ·

وجدا حلقة الحظ كثيرة الزحام فبلغا سياجها بعد مشقة · وتناول كل منهما حلقاته الخشبية الخفيفة وهو يتفحص الأهداف المنشورة فى تقارب معجز للصائد · سددا نحوها الحلقات فطاشت جميعها · وابتاعا مجموعة ثانية وثالثة من الحلقات وهو يحلم طيلة الوقت بعلبة فضية لا يدرى شيئا عما بداخلها على حين ركزت هى على زجاجة فلير دامور · وبعد الجهد والبذل أصاب زجاجة نبيذ وكسبت هى عروسا عارية · وذهبا وهو يفض سدادة الزجاجة ثم تناول منها شربة بعد أخرى · وركبا فى أثناء ذلك الساقية فارتفعت بهما الى جبين القمر ، ثم رقصا فوق سطح الغربال ، ودارت الخمر برأسه فأفرط فى مداعبتها حتى همست فى أذنه :

ــ حذار أن تلفت لنا الأنظار ·

فقرصها فى ساعدها البض فقالت بشىء من الحدة :

ــ لا ·

وانتزعت منه الزجاجة فأحكمت سدها ووضعتها فى

الصندوق الكرتونى لصق العروس • واستقلا ترولى غابة الأشباح فالقارب المتزحلق ، ثم وجدا نفسيهما أمام وادى التيه المعروف بحجرة جحا • هتف بسرور :

ــ عز المطلوب :

لكنها قالت بفتور :

ــ لا أحبها ، سنتيه فى سراديبها حتى نفقد الصبر •

فتناول يدها ضاحكا ثم دخلا • قطعا أمتارا فى مدخل مربع ينتهى بسد فى الأمام ، وعن اليمين وعن اليسار نفقان يستديران الى الداخل • ولاحظت تردده بين النفقين فقالت محتجة :

ــ من أولها حيرة !

فمال الى اليمين قائلا « لنكن من أهل اليمين » • سارا فى نفق مستقيم مضاء بفانوس يتدلى من السقف ، فانتهيا الى حجرة مستطيلة بها منفذان غير المنفذ الذى دخلا منه ، ووجدا بها بضعة أفراد وكان أحدهم يقول :

ــ هلكت من التعب •

فصاح آخر :

ــ الظاهر أننا لن نخرج الى سطح الأرض مرة أخرى !

اتجه بها نحو المنفذ الأيمن فسارا فى ممر بدأ ضيقا ثم أخذ فى الاتساع حتى اعترضته ثلاثة أبواب •

قلب عينيه بينها فقرأ على أوسطها بالقلم الرصاص « ادخل من هنا فانه مجرب » فتمتم :

ــ دعابة ماكرة لأحد اللاعبين ، على اللاعب هنا أن يعتمد على نفسه •

ــ لم تختار بابا دون آخر ؟

ــ العبرة بالتجربة •

ــ ولكن سنبدد وقت الفسحة •

ـ أليست حجرة جدا ضمن الفسحة ؟

مرقا من الباب الأيمن الى ممر قصير أوصلهما الى ميدان مسقوف تتعدد الأبواب على محيط دائرته ، وتكتظ باحتـه بالنساء والرجال · قهقه البعض وعبسـت وجوه فى نرفزة حقيقية · وقال رجل :

ـ لو أن أحدنا أصابه مكروه فهل يترك حتى يموت ؟

ـ لم لا يوجد مندوبون عن الادارة لتقديم المساعدة عند الضرورة ؟

ـ هل ننادى أحد المسئولين ؟

ـ نادى كثيرون ولا مجيب ·

دخل حسن من أحد الأبواب فتخبطا طويلا من حجرة الى ممر ومن ممـر الى سرداب ومن سرداب الى نفق ، وتيـار الحائرين يصادفهم فى شتى الاتجاهات · ولم ينقطع لحظة واحدة عن الضحك أو الغضب أو التعليقات · وتوقفت سعاد وهى تقول فى رجاء :

ـ لنرجع ·

فضحك قائلا :

ـ ماذا يعنى الرجوع أو ماذا يعنى التقدم ؟ ·· نحن نسير فحسب !

ـ ألا تذكر من أين أتيت ؟

ـ كلا ·

ـ وطبعا لا تدرى أين تذهب !

ـ هذا واضح ·

وهى تتنهد :

ـ تعبت وضجرت ·

ـ نحن معا وفى هذا ما يكفى ·

ـ ألا تسمع أصوات الغيظ ؟
ـ وأصوات الضحك ؟
ـ سنتخبط حتى موعد الاغلاق ٠

سر اللعبة لا يمكن أن يعرف فى أول جولة فليس أمامنا الا أن نجرب حظنا ٠

واستأنفا السير والتخبط ، وتجربة أبواب لا حصر لهـا وأنفاق وسراديب لا تنتهى ٠ واشتكت أصابع قدميها فحذرته من الاضطرار الى حملها بين ذراعيه ٠ وزادت جزعا عندما رأت رجلا قد اقتعد الأرض يائسا فى انتظار أن ينتشله رجل من الادارة عند موعد الاغلاق ٠ وطال بهما اللف والدوران والتخبط حتى تجهـم الوقت ثم دفعـــا بابا بحركة روتينيـة ميكانيكية فاذا بباب الخروج يطالعهما ! ٠ قام البـاب على مبعدة ثلاثة أمتار بهيجا رقيقا مضيئا محبوبا ، وتبدت ساحة لونابارك من خلاله سابحة فى الأنوار والأنغام ٠ غادرا حجرة جحا وهما يتصببان عرقا فذهبا الى حديقـة مشرب الجعـة وطلبا بيرة ٠ وضعت صندوق العروس على كرسى جنب حقيبتها وسلتت قدميها من الحذاء وراحت تقبض أصـــابع قدميهـا المخضبة وتبسطها وهى تلحظه بعتاب ٠ وبمجرد أن اســتقر الشراب فى بطنه دار رأسه وتفاعل النبيذ والبيرة بحال غير ودية ٠

قالت :

ـ أنت عنيد أكثر مما ظننت ٠
ـ هكذا يجب أن تكون الفسحة فى لونابارك ٠
ـ توجد ألعاب لطيفة وأخرى سخيفة ٠
ـ الأفضل أن نجربها جميعا ٠

انتعشت بالشراب فطلب قدحين جديدين وهو يقول :

ـ لم تبق الا لعبة الموتوسيكل ٠

قطبت متسائلة :

ـ تقصد لعبة الموت ؟

ـ لم تسمى بلعبة الموت رغم أنه لا يموت بها أحد !

ـ لا يسرنى أن أرى راكب الموتوسيكل الذى يبدأ دورانه فوق الأرض ثم ينتهى وهو يدور حول السقف !

ـ هى اللعبة الوحيدة التى لم نشترك فيها بعد ٠

ـ لا ٠٠ لا ٠٠

ـ لم لا ؟ ، ألا ترين أنها أشد اثارة من جميع سابقاتها ؟

ـ لن تتحملها أعصابى ، ولا معنى لها ٠

ـ بغيرها ستظل فسحتنا ناقصة !

ـ فلتبق ناقصة فهذا أفضل ٠

ـ ما دمنا قد جئنا فعلينا أن نجرب كل لعبة ٠

ـ لا تجعلنى أندم على معرفتك ٠

أذعنت ازاء عناده وهى متبرمة ٠ وشربا للمرة الثالثة ثم دست قدميها فى الحذاء وتأبطت ذراعه مرة أخرى ٠ سارا على مهل اضطرارى فوق سيقان مسترخية من الجهد ٠ ثقل رأسه بالخمار وعاود الألم أصابع قدميها ٠ والزياط من حولهما يشتد وأفواج جديدة من الناس تقدم رغم انتصاف الليل ٠

وتوسط القمر السماء ، سماء صافية الا من سحائب رقيقة متباعدة عبرت سطحه كأنفاس حارة فى جو رطيب ٠

وترامى اليهما أزيز الموتوسيكل وهما يقتربان من زحمة المنتظرين أمام الباب ٠ ضغطت ذراعه قائلة :

ـ كم أنك عنيد !

فقال وهو يهز رأسه :
ـ المؤسف حقا أن الفسحة ستنتهى ٠
وأدار نحوها وجهــه بشــوق وحنـــان ثم داعب ملتقى حاجبيها بابهامه ليزيل عنه تقطيبة منعقدة ، ولم يكف حتى منحته ابتسامة غير سعيدة ٠



المدينة الكبيرة تنفض النعاس فى صمت السحر · وقبيل الشروق تخضب الأفق بحمرة قانية · وقطرت السماء الباهتة زدتة فسطعت أنفاس دافئة : استند عسكرى الداورية بجسر الجلاء الى جذع شجرة رافعا رأسه الى الأفق عبر النيـل ، وبصق ، ثم تمتم :

ـ يوم نكد حتى قبل أن تشرق الشمس !

وذابت الحمرة القانية فى وهج الشمس ، وانهالت الأشعة على الكائنات · وسعى فوق الأرض باعة وعمال ، وسرعان ما التمعت الحياة بقطرات العرق وأكثر من صوت قال :

ـ يا له من يوم !

واشترى أحمد علبة البلمونت ثم مال الى التليفون على طاولة الدكان فأدار القرص :

ـ نادرة ؟ ·· صباح الخير ·

ـ ····

ـ كلا ، لم أذهب الى المصلحة بعد ، أنا أكلمك من دكان السجائر ·

ـ ····

ـ فعلا ، والطريق أشد حرارة ، ولكنه جو مناسب لنزهة مسائية على شاطىء النيل ؟

ـ ····

ـ حسن ، السابعة مساء عند جسر الجلاء ·

ارتفعت الشمس وسـط هالة ناصعة قاسـية · واستكن الهواء فى كينونة ثقيلـة متخلفة ، وقرص الذباب الخدود فى

بلادة وتكتل كالسخام فوق صناديق القمامة • ونشرت الجماهير المتدفقة نحو محطة الباص الجرائد فوق الرءوس •
وقال رجل :

ــ الفول يغلى فى بطنى !

فأجابه الآخر :

ــ اذن فكيف تكون الظهيرة ؟ !

وخلف المحطة مباشرة تبدت جباه العمال العاكفة على صف الحروف من نوافذ بدروم المطبعة وترامت أصوات الآلات بلا انقطاع •

وشابت القبة الباهتة صفرة كئيبة ضاربة فى حواشيها الى الاحمرار • ونزت الأرض رطوبة ساخنة أما الهواء فاختنق برائحة كريهة كأنما يتنفس دخانا • وفى ادارة الحسابات أغلقوا النوافذ ورشوا الأرض الخشبية الكالحة بالماء ، وأضاءوا مصباحا واحدا ، واستعملت الأضابير فى التهوية ، واتبعت نصيحة مجرب باحتساء الشاى الساخن ! •
وقال المراجع الكهل :

ــ صدقونى لم تعرف البلاد حرا كهذا الحر !

ــ مؤكد أن الحرارة جاوزت الأربعين •

ــ أو الخمسين ، نحن نحترق فى الواقع •

ورفع المدير عينيه المظلمتين من هبوط القلب وقلب فى الوجوه نظرة خابية حاقدة وقال :

ــ ستعود الادارة بعد الظهر لانجاز الميزانية ••

أطبق الصمت فلم يناقشه أحد • وهمس كاتب :

ــ الحقود وجد فرصة للانتقام !

ــ صبرك ، لن يمتد به الأجل حتى منتصف النهار !

وفى الميدان ارتطم مقدم تاكسى بمؤخرة آخر عند اشارة المرور • وغادر السائق المتقدم مكانه ليعاين أثر الارتطام •

مال فوق الفانوس الخلفى يسبقه شعر صدره المتلبد البــارز رن بين شقى قميصه وهو يجفف جبينه بكمه ، ثم رمى السائق الآخر الذى لحق به بنظرة ملتهبة فتمتم الآخر :

ـ وقف التاكسى فجأة فلم ٠٠

فقاطعه بحدة :

ـ حطمت الفانوس ٠

فراح يجفف وجهه بمنديل ضارب الى السواد وهو يقول :

ـ التواءة بسيطة ليس الا ٠٠

صاح به مطاردا بلسعة الشمس :

ـ أنت أعمى !

وتماسكا بشدة ثم انهالت اللكمات ، وجاء عسكرى المرور جريا وهو يسب ويلعن ٠

وتربعت الشمس فى كبد السماء كرة من نار تقذف حمما٠ وانتشرت الصـفرة الكئيبة الضـــاربة الى الاحمرار لطخات متفرقة فى الأديم الضارى ٠ ونفثت الأرض أطنانا من الحرارة اللافحة المركزة بالبخار ، وانطـلقت الباصـــات مائلة الى الجانب الأيمن من ثقل حمولتها ، وتلاصقت الأجساد البشرية حتى انصهرت فى جسد واحد هائل متعدد الألوان والتقطيبات متوحد العنــاء والعــذاب ، واستقرت فى الأعين المتطلعة الى الطريق نظرة خاملة مستسلمة متقززة متألمة متصبره ٠

ـ العرق يتجمع ويهبط فى خطوط كالحشرات ثم يســتقر فى الحذاء ٠

ـ يوم من أيام الجحيم ٠

ـ اذن كيف يعيش الناس فى السعودية ؟

ولسبب ما انفجر الســائق فى غضب قاذفا بســـيل من اللعنات الفاحشة فصكت آذان السيدات والأوانس وكأنهن لم يسمعن ألبتة ، وواصلن وجومهن بلا مبالاة ٠

وأخذ مرسى صاحبه الى قهوة وبار آسيا وهو يقول :

ـ لن تعـرف حقيقة اليوم الا فى جرائد الغد ، كم تظن درجة الحرارة ؟

ـ فى الظل ؟

ضحك مرسى عاليا وهو يصفق مناديا الجرسون ثم قال :

ـ هاك طريقتى المقتبسة عن الانجليز الذين يعيشون فى المناطق الاستوائية ، أن أشرب حتى تلطسنى الخمر ، هناك لن أفرق بين ديسمبر وبين أغسطس ٠٠

وقنع عســاف وزوجه من الغـذاء بأكلة جبن وبطيخ ٠ وتجرد من ملابسه ثم استلقى ـ كما ولدته أمه ـ فوق الكنبة ، وفعلت حرمه مثله فوق الفراش ٠ على ذلك لم يهنـأ بالنــوم لتسرب العرق المالح من جفنيه وانحداره أحيـــانا الى فيــه الفاغر ٠ استيقظ مرات ليجفف وجهه ثم يستغرق فى النوم ، ولكنه صحا أخيرا على ضوضاء وزياط منزعجا حقا ٠ نهض متسخطا فجفف جسده بالفوطة ومضى الى الشيش لينظر ماذا يجرى فرأى الغلمان يلعبون الكرة فى الطــريق تحت قذائف الشمس ! وخلف الهدف مباشرة نام سائقو الكارو على الطوار فى ظل الجدران ٠ لعن النسل والتناسل ثم رجع الى الكنبــة يبتسم ساخرا :

ـ يلزمنا جهاز تكييف هوا ٠

فتردد شخير زوجه عاليا ٠

واندلحت الصفرة الضارية الى الحمــرة وانبثقت منهــا اشعاعات تحمل رســـائل من الكآبة والضجر ٠ وتصـــاعد التثاؤب والتأوه ٠ ونفد صبر ست عليات زوج بيــاع الثلج فوضعت ربع لوح ثلج فوق رأسها ، ثم مسحت به عنقها ، ثم أرسته فوق صدرها طويلا ، ولم تمض ساعة حتى ظهرت عليها أعراض الحمى ٠

وأمام قهوة الحرية سـقط عبد الرحيم القاضى المصـاب بضغط الدم على جنبه ، وصـدرت عنـه تموجات تشنجية ، وانكمش جانب فيه وسالت منه رغوة ، ثم فاضت روحه ٠

وحتى العصر لم يطـرأ تغير يذكر ٠ خف توهج النهـار قليلا ٠ وبهتت الصفرة الكئيبة المنداحة فى السماء ٠ ومالت الشمس ولكنها ظلت تصب النيران صبا ٠ وانعقدت الرطوبة حول الأجساد مادة لزجة ذات كثافة ملموسة ٠ ومع أن الشعر هو أحب القراءات الى حسن الزفتاوى الا أنه قال بفتور :

ـ كلمات ٠٠ كلمات ، لا توحى بشىء ، أين ذهب الشعر ؟

فأجابه صـديقه حمدى مغمض العينين ملصـقا زجاجة الاسباتس بجبينه :

ـ عبثا تبحث عن شىء له قيمة فى هذا اليوم ٠

ـ حتى الحب مات !

ـ وحتى الجنس فقد نكهته الحيوانية الحريفة !

وصادف عسكرى الدورية بحى الطبلية عربة خيار يدفعها صاحبها فى تراخ فثار غضـبه ثم انقض على العـربة فنزع مقبضيها من يد البياع ورفعهـا الى أقصى ذراعه حتى اندلق الخيار على الأرض وصاح :

ـ ألف مرة قلنا ممنوع مرور العربات !

وصرخ البياع وتجمهر الناس ٠ وانتبه العسكرى المنقول حديثا من قسم قصر النيل الى قسم الجمالية الى أن التعليمات المطبقة على منطقة قصر النيـل لا تنطبق على حى الطبلية ، فشعر بحرج مركزه ، ولكنه أبى أن ينهزم أو أن يعترف بخطئه فصاح مستزيدا من الغضب :

ـ كيف تسب الدين يا جاحد ! ٠٠ تسب الدين ! ؟

وأقسم الرجل بالطلاق ولكن أكثر من قسم بالطلاق ترامت

من الأركان والنوافذ . وتابع الحادثة بفتـور الواقفون حول مشرب السوبيا ، يلهثون ويشربون ويتصببون عرقا ، والذباب يتلاطم فوق رءوسهم .

واستقرت أشـعة الشمس المائلة فوق الجانب الغـربى لعمـــارة النجمة بجاردن سيتى حيث يقيم ابراهيم سمهــان المستشار . واستيقظ المستشار من قيلولته ليجد نفسه غارقا فى بحيرة من العرق . هز رأسه فى ذهول ونظر طويلا الى صورة جسده المنطبعة فوق الفراش . كيف حدث هــذا ؟ . وماذا يصنع اذن جهـاز التكييف ؟ . انزلق الى الأرض وهو يترنح فى جلبابه الفضفاض ، ومضى الى الجهاز ، فتبين أنه متوقف . فسد الجهاز أم انقطعت الكهرباء ؟ . وأدار المفتاح الكهربائى فوجد الكهرباء منقطعة . لا شك أنها انقطعت بسبب ارتفاع الحرارة . وهذا يعنى أن الفريجيدير أيضا متعطلة ، فى هذا اليوم الملعون . وهو وحيد فى القاهرة بينـا تصيف الأسرة فى الاسكندرية . وحيد بكل معنى الكلمة فحتى الخدم فى الاسكندرية ، ولولا اجتماع مجلس ادارة المؤسسة المنتدب اليها لما جرى عليه هذا الحظ التعس ، وذهب الى الحمام وفتح الفريجيدير ليبـل ريقـه الجاف ولو بشربة فاترة ولكنه رأى صرصورا لابدا فى عنق القارورة الوحيدة التى ملأها بنفسه قبل النوم ! . تحول عنها غاضبا عابســا الى صـنبور الماء وفتحه ولكنه لم يقطر نقطة واحدة . رباه .. غاض الماء من الأدوار العاليـة كما يحدث كثيرا فى الأيام القائظـة . أى جنون ! . ضائع فى صحراء . كم أنه ظمآن ، وكم أنه متلهف على دش بارد ! . وغادر شقته فى الدور الثامن الى الطرقة الخارجية . المصعد متوقف طبعا . كل شىء متوقف خرب فى هذا اليوم الجهنمى . ونظر من فوق الدرابزين وصاح بأعلى صوته :

ـ عم محمد ‥ عم محمد ‥

لا مجيب · وكرر النداء دون جدوى · رباه ما العمل · ظمآن وحران ولا بد أن يذهب الى المرحاض أيضا · واذا به يرى خادم الشقة التالية له وهو يصعد خطوة فخطوة ، ينوء بحمل صفيحة مملوءة بالماء · وأنزل الخادم الصفيحة على أرض الطرقة حتى يسترد أنفاسه · وقف شاحب الوجه بصدر يعلو وينخفض · ونظر المستشار ناحيته فتبادلا نظرة طويلة وهما صامتان · وضمن المستشار نظرته رجاء مستحيلا فتجاهله الخادم وأرخى جفنيه زائغا مما قطع بأنه تلقى الرسالة ورفضها · له حق فليس فى الامكان أن يكرر عمله الفدائى مرتين ولكن ما العمل ؟ · ونظر المستشار الى الماء المترجرج فى الصفيحة الناصعة فازدرد ريقه الجاف بصعوبة ، ثم همس وهو يبتسم متوددا :

ـ تسمح لى بملء كوب ؟

فقال الخادم باستحياء :

ـ تفضل يا بيه !

وهرع الى الداخل ثم رجع بكوب فملأه ، وصبه فى جوفه دفعة واحدة ! وجعل يستشعر الماء وهو يرشح من مسامه ، ثم تمتم :

ـ ماء دافىء ·

ـ ينصب من الحنفية كالنار ‥

وتذكر مطالبه الضرورية الأخرى فاستأذن فى ملء الكوب مرة أخرى فأذن له الخادم بتسليم لا حيلة فيه · ورجع الى الشقة وهو يقول ساخطا « بلد غير مستعد للحل مع أن ثلاثة أرباع عامه صيف ! » ·

وتوارت الشمس فى المغيب وراء ستار دموى ولكن الجو لم يتحرر من قمقمه المنصهر · وأذاع الراديو أنباء الموجة

وتفسيراتها الفلكية والدرجة الثامنة والأربعين التى بلغتها فى الظل · ورقدت المدينة فى همود تحت العذاب الأغبر · وانتظر أحمد عند جسر الجلاء حتى وافته اليه نادرة فى فستان رمادى عارية الذراعين والساقين ·

ـ ماذا فعلت اليوم ؟

فأجابت وهى ترعش راحتها المبسوطة فى استفظاع :

ـ أوه ·· يوم لن ينسى ··

ذهبا الى مجلسهما المعهود بالكورنيش ولكن الشاطىء كان مكتظا بالبشر لا موضع فيه لانسان · اقترح أن يمضيا سهرة فى سينما مكشوفة ثم يعودا الى النيل بعد منتصف الليل · ولما رجعا لم يكن الشاطىء قد خلا ولكن كان ثمة موضع · وافترشا الحشائش بعد أن أزالا عنها قشر الفول ومزقا من الورق ، ولم يكن فى الجو نسمة واحدة ·

ـ مات الهواء ؟ !

فأجاب بضيق :

ـ شىء أثمن منه مات فينا ·

ـ لن نحتمل يوما آخر كاليوم ·

ومضى المكان يخلو بسرعة نسبية حتى وجدا نفسيهما منفردين · أخيرا · ولف ذراعه حولها فشعر فى جنبه بسخونة وفغمت أنفه رائحة عرق فاتر · وانعكست أضواء الفوانيس على ماء ساكن راكد لا يلعب ولا يبهج :

ـ اذن متى تنكسر حدة الحرارة ؟

ـ آه ·· متى ؟

وخيل اليه أن حرارة الحب تزدرد حرارة الجو بسرعة لم يتوقعها ، غير أن قدما ثقيلة دقت الأرض فى الظلام الصامت · ومن الظلمة المضاعفة التى تلقيها شجرة وارفة مرق شبح العسكرى فى ضوء المصباح · تعلق به رأساهما ثم همست :

ـ لا يوجد أحد غيرنا ٠٠

فشبك راحتيه حول ركبته وغمغم حانقا :

ـ يوجد الحر ٠٠

ـ لا تعط له فرصة للتحرش ٠٠

مر العسكرى أمامهما وهو يرميهما من عل بنظرة غامضة ٠ ابتعد حتى أوشك أن يختفى ولكنه توقف ٠ وتنحنح ٠ ثم استدار راجعا حتى وقف على مبعدة مترين أو ثلاثة ٠ لبث واقفا فى عناد كأنه الحر دون أن ينبس ٠ توقعا أن يقترب أكثر أو أن يتكلم ولكنه لم يفعل ٠ ولكزته بكوعها هامسة : « هيا » ٠ قاما معا ، وألقيا نظرة أخيرة على الماء الراكد ، ثم ذهبا ٠

وشىء غريب كريه زحم الجو ، ذو رائحة مريضة وشخصية مبهمة ، وقد انعقد حول مصابيح الطريق كالضباب ، وانتشر تحت النجوم فتراءت خابية ٠ وتحرك العسكرى ببطء شديد ، وبصق ، ثم تمتم :

ـ قلنا انه يوم نكد حتى قبل أن تشرق الشمس !



مر العسكرى أمامهما وهو يرميهما من عل بنظرة غامضة ٠
ابتعـد حتى أوشــك أن يختفى ولكنه توقف ، وتنحنح ٠

عابرو السبيل

اندمج الشارع الكبير فى حياة هؤلاء الناس · شارع قصر النيل · ما بين السابعة والثامنة صباحا يقطعونه ثم يتفرقون الى أماكن أعمالهم · وتتكرر الرحلة فى نظام فلكى على مر الأعوام · بدأها كثيرون وهم فى ريعان الشباب والفتوة وواصلوها حتى أدركتهم الشيخوخة وتخايلت لأعينهم النهاية · ومنهم من ينقطع دون سبب معروف للآخرين اذ أنهم يترافقون فى الطريق ولكنهم لا يتعارفون · والعين تلقى نظرة عابرة فلا تكاد ترى ، كأن الآخر شجرة مغروزة فى الطوار ، وربما استيقظت لسبب ما فترى بدهشة العوالم الغريبة الماضية فى سبيلها ، كل عالم وحدة من الأسرار والأفراح والأتراح لا تدرى شيئا عن الآخرين ، ولا تجد وقتا للتعرف الى ذاتها وتجهل كل الجهل مصيرها ، عند ذاك تتفجر الألسنة فى غزارة ولكن تشح الأجوبة حتى الارهاق ، وتشمخ السماء بصفحتها ـ الصافية أو الملبدة تبعا للفصول ـ فلا تشفى غليلا ولا تبدد حيرة ·

ثابر على تلك الرحلة ثلاثة أشخاص ، رجلين مصريين وامرأة أفرنجية · بدأها الرجلان حوالى عام ١٩٢٥ ثم ظهرت المرأة بعد ذلك ببضعة أعوام ، وكانوا فى ذلك الوقت شابين وشابة · وكان أحدهما طويلا نحيلا يتميز بعينين حادتين وسمرة غامقة وحركات عصبية ، أما الآخر فكان معتدل الطول والقد هادىء الطبع · وبدت الفتاة متعة للبصر بعينيها الزرقاوين وشعرها الفاحم وبشرتها الحليبية وجسمها الرشيق. وكانت ـ كذلك الشاب الطويل ـ يسيران فى اتجاه ميدان الأوبرا ، أما الشاب الآخر فيتجه نحو ميدان سليمان باشا ، ويتقابلون عادة فى منتصف الطريق أو نحو ذلك ، ولم يترك

أحدهما فرصة للقاء الا ويملأ من الفتاة عينيه ، المعتدل يرمقها بحياء وبلا غاية الا ابهاج الروح والحواس ، أما الآخر فيلتهمها بنظرة حادة ، ليست نظرة ولكنها كلام وفعل وعربدة ، ورئى مرة وهو يحييها وهى تتجنبه مبتعدة عنه مسرعة ، ذلك أنها كانت فيما بدا فتاة جادة نشيطة تنطلق بجدية وعزم العاملات ، لا تكاد تنظر الى غير الطريق ، واذا التقت عينها بعين الشاب المعتدل فبالقدر الذى يحتمه حب الاستطلاع أو ملابسات المشى فى حدها الأدنى ٠ وجعل الشاب المعتدل يسترق النظر الى الآخر بامتعاض ، ويتابع مناوراته بحنق واشفاق متوقعا أن يراه ذات صباح والجميلة تتأبط ذراعه ٠ وبقدر ما كان يلعن قحته بقدر ما كان يعجب بها على نحو خفى ، ويتمنى فى أعماقه بعضا منها ، وأحزنه جدا أن يتفق اتجاههما فى الطريق على خلاف اتجاهه ٠ ومضت الكواكب الثلاثة فى مداراتها دون أدنى تغير فى علاقاتها المشتركة ، أما عن كل فى ذاته فقد تتابع ظهور خواتيم الزواج فى أيديهم ، سبق المعتدل وتبعه فى نهاية العام الطويل وأخيرا لحقت بهما الحسناء ٠ ورغم ذلك فلم يقل الشغف بها كثيرا وان بدا أن الطويل قد تخلى بصفة شبه نهائية عن أحلام المغامرة ٠ ولم يتغير شىء مما بين الثلاثة عندما قامت الحرب العالمية الثانية وان تكن الدنيا قد اندفعت بجنون نحو التغيرات الفادحة ٠ زخرفت الصحف بعناوين المعارك الحمراء ، وتناقل المارة الأنباء المثيرة ، وظهر الانجليز المدنيون والعسكريون بكثرة حتى فى تلك الساعة المبكرة ، وفتح ثلاثة بارات فى الشارع العتيد ، وانتقلت عدوى التغيير الى الفتاة نفسها أسوة بالدنيا من حولها ، فثقلت مشيتها وشحب لونها ثم تكور بطنها وانداح تحت الفستان التقليدى المسترسل بلا حزام ، أجل لقد حبلت العروس الفاتنة ٠ وتفحصها الطويل بعين صقر وبشىء من الغيظ متذكرا امرأته ولكن امتلأت عيناه

بالعطف والشرود الغامض · وحبلت المرأة مرة ثانيــة قبيل انتهاء الحرب ، وثالثة أيام حرب فلسطين ، ولعــل أحدا من الثلاثة لم يكن يفطن حقا الى الزمن الا عندما يقع بصره على الآخر · امتلأ عود الحسناء وتوارى فى الذاكرة القد الرشيق المشوق ، وأحدقت بالعينين الزرقاوين أنصاف دوائر خفيفة لم تعد تخفى ، واستقرت بهما نظرة رزينة ، رزانة الاعيــاء لا رزانة الدلال والصدود التى عرفاها قديما · واشتد نحول الرجل الطويل وجرى المشيب فى سوالفه وشاربه وبرزت عظام وجنتيه ، ومع أن المعتدل لم ير من تغير ذاته سوى شــعيرات بيضاء الا أنه لم يشك فى مدى تغيره الحقيقى كلما نظر الى رفيقه فانطوى صدره على توتر غامض كأنه صدى بعيد جدا لما يقع حوله فى التاريخ والطريق · واستمر دوران الكواكب الثلاثة خلال أحداث جديدة ، فقد نشب فى القتال قتــال مرير واندلع حريق القاهرة ثم انفجرت ثورة يولية · تزلزل المجتمع من جذوره وانهار البنيــان المتــداعى وأخذ نظــام جديد فى التبلور ، واذا بالاعتياد الثلاثى يعترض الطريق كثور أعمى· وفى أتون حرب العدوان قدر لأولئك الثلاثة أن يجتمعوا فى مكان واحد لأول مرة · فقــد انطلقت زمارة الانذار وفرقعت المدافع وهم يسيرون أمام مشرب لاجيــون · لجأ ثلاثتهم الى المشرب باندفاع عفوى فوجدوا به خادما واحدا يغسل أرضيته ، ومائدة واحدة صالحة لاستقبالهم فى أقصاه · شقوا سبيلهم اليها خلال قوائم من الكراسى المتراصة فوق بعضها ، ثم وقفوا مترددين قلقين ، ثم جلسوا ــ بدعوة من الخادم ــ حول المائدة المنفردة · وكلما ترامى انفجار تبادلوا نظرة باهتة دون أن ينبس أحدهم بكلمة ، وكان الطويل أجرأهم على خرق جدار الصمت فقال :

ــ ولا أيام الحرب العالمية ··

فقال الآخر بحنق :

ـ المجرمون ! ٠٠ سرعان ما نسوا هوانهم تحت أقدام هتلر !

وتواصل التعليق دون أن تشترك المرأة فيه ، ثم خف الضرب درجات فعاد الطويل يقول :

ـ لا مدعاة للخوف فهم يضربون الأهداف ٠

وحدجته المرأة بنظرة جائعة للتصديق فابتسم اليها ٠ تبدت عن قرب معتلية ذروة النضج الانثوى وان شارف حسنها الوداع ٠ وقال الطويل مدفوعا بأريحية طارئة :

ـ خير ما نفعل أن نتناسى ما يقع فى الخارج ٠

ثم وهو يبتسم عن طاقم نضيد :

ـ نحن نتقابل كل صباح منذ زمن بعيد جدا كالحلم ٠٠

تفكر الآخر مليا ثم قال :

ـ منذ عام ١٩٢٥ ٠

فالتفت الطويل نحو المدام وقال :

ـ المدام ظهرت بعد ذلك ؟

انتزعت نفسها من التركيز المفعم بالقلق فى الخارج وهزت رأسها بالايجاب ٠

ـ عمر طويل مر دون أن نتبادل كلمة واحدة ٠

وضحك ثم استطرد :

ـ لذلك لا أعجب لخصام أمتين أو ثلاث !

وساءلت المرأة نفسها بتوتر :

ـ متى ينتهى الضرب ؟

فقال بلهجة ودية جدا :

ـ لا تخافى يا مدام ، سينتهى الضرب عاجلا ويذهب كل منا الى طريقه ولكنى أود أن أنتهز هذه الفرصة لأحقق فكرة جميلة خطرت لى الآن فقط !

نظر اليه المعتدل مستطلعا فى غير حماس على حين نظرت المرأة فى ساعة يدها ٠

ــ سوف أحال على المعــاش بعد شــهر واحد ، أى أننى سأنقطع عن رؤيتكما بعد تلك العشرة الطويلة العزيزة ٠٠

فقال الآخر :

ــوأنا أيضا سأحال الى المعاش فى نهاية هذا العام ٠

ــ هذا أدعى الى تحقيق الفكرة ، وهى أن نحتفل بذكرى لقائنا الطويل على مدى أكثر من ثلاثين عاما !

وقلب وجهه بينهما فى حماس وقد أخذ الهدوء يخيم فى الخارج رويدا وان لم تطلق بعد زمارة الأمان ، ثم قال :

ــ أود أن أدعوكما الى عشــاء بســـيط بمطعم كريسنتم بالهرم ، ما رأيك يا أستاذ ؟

فقال الآخر بنبرة سلبية :

ــ بكل سرور ان سمح الوقت !

ــ ستقبل الدعوة حتما خصوصا اذا قبلتها المدام ، ما رأيك يا مدام ؟

انتزعت المدام نفسها من قلقها مرة أخرى وتمتمت :

ــ لكن ٠٠٠

ــ لا لكن ألبتة ، انه سلوك لا عيب فيه عندكم ، ودعوتى واضحة البراءة ، ورفضها غير انسانى ٠٠٠

ابتسمت ابتسامة خفيفة اعتدها الرجل قبولا فبادر يقول :

ــ شكرا ، سنتفق على الميعاد فى صباح قريب ٠

اتفقوا على الميعاد صباح اليوم الثالث لوقف القتــال ٠ وتقابلوا فى ميدان التحرير ثم استقلوا تاكسيا الى كريسنتم فبلغوه قبيل الغروب ٠ وفى أثناء ذلك تم التعارف بينهم فقدم الطويل نفسه قائلا « على بركة ، مترجم » وقال الآخر « سيد

عزت ، مدير حسابات » وقالت المدام « مدام ماتياس ، خياطة فى ماى ستار » • وجلسوا فى حجرة خاصة يحجبها عن بقية المحل باب موارب يقوم خلفه برافان • وأوصى على بركة على عشاء حمام وكبد وأمر بكونياك • ونظر الى سيد عزت ورفع كأسه قائلا :

ـ لنشرب نخب شباب عام ١٩٢٥ ، أما أنت يا مدام فما زلت شابة !

فقالت ضاحكة :

ـ لا •• لا •• لا فائدة من الكذب ، أنت تعرف وهو يعرف •

وما كادت الكئوس تفرغ حتى طلب غيرها وهو يقول :

ـ لا ترفضا ، دعونا نشرب ، لن نسكر على أى حال ، وهى ليلة العمر •

ومضت الألفة تحل محل التحفظ ، ويشيع الدفء بتأثير الكونياك ولباقة على بركة وحيويته • وراح يقول :

ـ كان يجب أن نكون أصدقاء حميمين ، يتبادلون المودة والأسرار ، ولكن فات الوقت للأسف ، فلم يبق لنا الا أن نذكر شيئا من الأمور الجوهرية جدا لتمام التعارف ، أسعد حادث فى حياتنا مثلا أو أبقاه أثرا فى نفوسنا ؟ !

رحب سيد عزت بالاقتراح لا لشىء الا لأنه يجد ما يقول ، فقال :

ـ لعل أسعد حادث صادفنى هو نجاح ابنى الأكبر فى الثقافة العامة بعد ما يشبه اليأس ••

ونظر الرجل الى المدام مستطلعا كأنما كانت هى الهدف الحقيقى لاقتراحه فابتسمت قائلة :

ـ زواج ابنتى الكبرى ، ولكن الحادث الذى لا أنساه هو وفاة زوجى منذ أربعة أعوام •

كاد التهلل للخبر يفلت من أساريره لولا أن تداركه بتقطيبة مصطنعة ثم هز رأسه فى رثاء · وانتهز فرصة الصمت الذى تلا ذلك فطلب الكونياك لثالث مرة ، ثم ضحك مفتتحا صفحة جديدة وقال :

ـ أحداثى أنا لا تخلو من غرابة ، فأسعدها كان وفاة قريب آلت الى تركته ، وأتعسها جاءنى منك أنت يا مدام !

ـ أنا !

ـ أجل وأنت تعرفين السبب ·

فقالت متشجعة بفعل الكونياك الخفى ·

ـ تعنى مطارداتك لى فى الشارع ؟

ـ أعنى اعراضك عنى حتى قبل الزواج ·

ـ يا عزيزى ، أنت لم تكن جادا ··

ـ كيف عرفت ؟

ـ أنا أفهم ، أنت لم تكن جادا ··

وقال سيد عزت وهو يفرغ ثمالة كأسه :

ـ أنا موافق ·

ـ أنت أيضا ! ، هل اختفت نواياى الطيبة الى ذلك الحد ؟

ـ لم تكن هناك أية نية طيبة !

ـ وأنت ؟ ! ، كنت تأكلها أكلا وتأكل نفسك !

فقال سيد عزت بتسليم :

ـ لا أنكر ذلك !

ضحك الرجل فى شماتة أمام مدام ماتياس فقالت :

ـ لا أصدق ·

ـ لماذا ؟

وجاء العشاء مع جديد من الكونياك فأقبلوا على الطعام والسؤال معلق والاهتمام به يعمق الى غير نهاية ، وقالت مدام ماتياس وقد احمرت أذناها من الشراب :

ـ لى معك حكاية ٠
ـ أنا ؟ !
ـ كنت تنظر بقوة ، كل صباح ، قلت لنفسى حتما سيكلمنى يوما ما !
ـ حسبتك لم تلحظى شيئا ألبتة !
ـ هه ! ، قلت سيكلمنى . وما أخره الا أنه مؤدب أكثر من اللازم على خلاف ٠٠
قاطعها على بركة بضحكة عالية هاتفا :
ـ على خلاف الآخر القليل الأدب !
وهى تضحك أيضا :
ـ لا ٠٠ لا ٠٠ معـذرة ٠٠ (ثم ملتفتة نحو سـيد) ٠٠ واعتبرت المسألة مفروغا منهـا لدرجة أننى فاتحت ماما فى الموضوع ولكنها رفضت بشدة فكرة زواجى من مصرى !
صاح سيد عزت الذى أفقدته لذة الحديث لذة الطعام :
ـ الزواج ؟ !
ـ نعم ٠٠ وبسـببك زعلت من ماما فأقمت مدة عنـد خالتى ٠٠
ابتسم سيد فى ارتباكه حياء وسرورا كما كان ينبغى أن يفعل عام ١٩٣٠ واذا بعلى بركة يلكزه فى ذراعه قائلا :
ـ ضيعت على فرصة دون أن تنتفع بها ، صدق من قال ان رجال الحسابات معقدون الى النهاية !
تمتم سيد عزت :
ـ لم أكن أعرف ! ، كنت يا مدام جادة جدا بصورة غير مشجعة ٠
ـ هكذا نصحتنى زميلة لى فى ذلك الوقت بماى ستار ، كانت يهودية مولودة فى مصر ، قالت لى ان المصريين يعشقون المرأة اللعوب ولكنهم لا يتزوجون الا المتحفظة !

صاح على بركة بفم مكتظ بالحمام :
ـ نعم النصائح اليهودية !
فخاطبت المدام سيد عزت قائلة :
ـ لكنك لم تتكلم ، حتى لم تحاول الكلام ·
قال بارتياب :
ـ كنت دائما أخاف من الافرنج !
ـ تخاف ؟ !
ـ نعم ، شيء قال لى انك مستحيل لأنك افرنجية ، وكلما فكرت فى الكلام عقد الخوف لسانى ·
على بركة وهو يضحك فى تهكم :
ـ مفهوم ·· مفهوم ·· اللائحة المالية لا تسمح بحب بين مصرى وافرنجية !
ـ وكان مرتبى محدودا وكانت فكرتى عن الحب أنه باهظ التكاليف !
قالت المدام وهى تهز منكبيها :
ـ انتظـرت حتى خجلت من نفسى ، ثم كان أن تعـرف بى مسيو ماتياس ·
فقال على بركة معاتبا :
ـ انتظرت الصامت وصددت المتكلم الفصيح ! ·
انتهى العشاء ولكن الشراب لم ينته · وتجلت آثاره فى الخدود والأعين والألسن وارتفع الضحك ·
وهتف على بركة بنبرة الظافر باقتراح سعيد :
ـ عندى فكرة !
فنظرا اليه مستطلعين فقال :
ـ لنرقص !
قال سيد عزت :

ـ لا أعرف الرقص ٠
وقالت المدام :
ـ ولا توجد موسيقى ٠
قال « لا يهم » وقدم لها ساعده فقامت ملبية ، وأحاط خاصرتها بذراعه وراحا يرقصان ٠ واذا به يضمها اليه حتى التصقا تماما ٠ حاولت أن تتخلص منه عبثا ٠ وتساءل سيد عزت فى ذهول :
ـ أى رقص هذا ؟ !
وقالت المدام فى اعياء :
ـ من فضلك ٠٠ عن اذنك ٠٠
تمادى الرجل فى فعله وانعقدت فى عينيه نظرة مخيفة فصاح سيد عزت :
ـ خذ بالك ! ٠٠ المدام تعبانة ٠٠
فقال بحدة :
ـ نحن هنا لا يدرى بنا أحد !
ـ ابعد ٠٠ دعنى ٠٠
وقام سيد عزت ٠ وبقيامه تأكد من أنه ثمل حقا ٠ وضع يده على كتف الكهل الطويل وقال برجاء :
ـ على بيه ، اعقل ، لا تفضحنا !
فصاح به وهو يزيح يده بحركة من كتفه :
ـ اعقل أنت ، سيأتى دورك يا غبى !
وتأوهت المرأة متألمة فهتف سيد بغضب :
ـ دعها ٠٠ أقول لك دعها ٠٠ ألا تفهم ؟
وأمسك بذراعيه محاولا فكهما ٠ جذبهما بأقصى ما استطاع من قوة ٠ انضغطت المرأة بينهما حتى استشعر بضاضتها ٠ تراجع خطوة وهو يضاعف من قوة جذبه وقد لفحه خجل آثم ٠ وصاح علي بركة بجنون :

ـ ابعد والا ··

ـ ستوقعنا فى فضيحة !

وهتفت المدام :

ـ ساصرخ ·· اقول لك انى ساصرخ !

ودار سيد عزت حولهما حتى وقف وراءه فقبض على عنقه وشده منه بلا رحمة حتى كاد أن يختنق فتراجع الى الوراء كالمتهاوى · وترنحت المدام ثم انحطت فوق الكرسى مغمضة العينين · ولم يعد يسمع الا لهاثهم · خلا كل الى نفسه يضمد جروح روحه · المدام كالنائمة وعلى بركة مائل الى الجدار وسيد متقلص الوجه من الغثيان · وقال على بركة بحقد :

ـ لن أدفع حساب أحد !

ـ مدت المدام يدها الى حقيبتها ولكن سيد عزت امسك بها بحنو وهو يقول له :

ـ لن يدفع لنا أحد ·

ورجعوا الى الصمت والاعياء · ثم خطرت لسيد فكرة فنادى الجرسون وقال له : « كأسان من فضلك » وقبل أن يختفى الرجل وراء البرافان قال له على بركة : « ثلاثة من فضلك » · وشربوا هذه المرة وكأنهم يتداوون ، فى صمت وبلا مرح · وراح على بركة يقطع الحجرة ذهابا وجيئة · ثم غادر الحجرة فغاب دقائق ثم عاد بوجه مغسول وأسارير هادئة · ونقل بصره بينهما ثم قال :

ـ دفعت الحساب ، كله ··

فاحتج سيد عزت قائلا :

ـ لا !

ـ دفع وانتهى الأمر ·

ثم بنبرة أرق :



وقبل أن يختفى الرجل وراء البرافان قال له علی بركة : « ثلاثة من فضـــلك » ..

ـ لننس ما كان ، هذا خير ما نفعل ٠

وابتسم فيما يشبه الاعتذار ٠ واقترب من سـيد قائلا « هات رأسك » ولثم جبينه قبل أن يفطن الآخر الى ما يريد ٠ وتحول الى المدام مغمضا : « وهاتى رأسك » ثم لثم جبينهـا دون مقاومة من ناحيتها : وقال ووجهه لم يزل فى مسـتوى وجهها :

ـ آسف يا مدام ٠٠ الصلح خير !

وفجأة لثم فاها ٠ ثم استقام متراجعا وهو يقول :

ـ قبلة الصلح ، وتحية للحلم القديم ، حلم تراءى لى قبل موت سعد زغلول !

على ذلك غادروا المحل ٠ وأمسك بيسراها داعيـا الآخر للامساك بيمناها وسار ثلاثتهم فى جو مائل للبرودة ٠ والقمر متوار وراء سحابة مفضضة ٠ وتراءى الخلاء فى ظلام حتى الأنوار المتبـاعدة الباهتـة فوق المقطم كعقـد من النجوم ٠ وضحك الرجل وقال :

ـ فلنتذكر أغنية جميلة يعرفها ثلاثتنا لنغنيها معا !

يوم حافل

ـ لا ..

قالها بحدة وهو يقطب ، ثم رشف رشفة من قدح الشاى .
وركز عينيه فى القـدح ليتجنب عينى زوجتـه ولكنهـا قالت محتجة :

ـ كنت متوقعة هذا الرد !

ـ حسن ، لم لم تعفى نفسك منه ؟ !

ـ لأن المرأة مسكينة حقا .

قال وهو يهز رأسه هزة الخبير بالعالم والناس :

ـ شياطين خبثاء .

ـ اقرأ العريضة لعلك تقتنع بأنها مظلومة حقا .

ـ قلت شياطين خبثاء .

ـ أنت تعلم أن زوجها وهب الوزارة عمره كله فلأسرته حق فى المساعدة التى يجيزها القانون .

ـ وهب الوزارة عمره ! .. ، اعلمى أن تسعين فى المائة من موظفى الحكومة نباتات طفيلية تتغذى بدون وجه حق .

ـ متى تغير بالله من طبعك ؟

رمقها بنظرة باسـمة باردة لا يمكن أن تنبت أمـلا فحل صمت غير قصـــير ، ثم سألها بنبرة جديدة وهو يقـوم عن المائدة :

ـ كيف حال الولد ؟

فلم تجب احتجاجا ، ولما كرر السؤال قالت باستياء :

ـ نام ليـــلة أمس نوما هادئا ولكن الحرارة ما زالت مرتفعة .

واستقل سيارته وهو يأمر السائق قائلا « جروبى » ٠
انطلقت السيارة تقطع الكورنيش مخلفة وراءها المعادى ٠
وفتح الجريدة فتصفح العناوية الكبيرة بسرعة حتى استقر بصره فوق صفحة الوفيات ٠ طالع أسماء الراحلين أما الاقارب فسكرتيره الخاص يتولى أمرهم ٠ متى يطالعك اسم على كامل بالخط العريض ؟ ٠ سوف تشيع جنازته بكل اجلال وتؤدى له جميع الواجبات ولكن متى ؟ ٠ ذلك الرجل العنيد المصاب بتصلب الشرايين ٠ وهو يعاندك ويتوهم أنه يحافظ على كرامته وكأنه لا يخشى قوتك التى يعمل لها كل انسان ألف حساب فمتى ؟ ٠ كما قرأت يوما اسم حسن سويلم ٠ فى مثل هذه الجلسة فى نفس السيارة فى نفس الطريق ٠ يومها بدأت بالنظر فى صفحة الوفيات فكان اسمه أول ما وقع عليه بصرك ٠ البقاء لله ٠٠ حسن سويلم ٠٠ مراقب عام الايرادات. متى يا على كامل ؟

ـ انظر أمامك !

صاح بالسائق بعنف فحول الرجل عينيه بسرعة عن أسراب حمام تطير فوق سطح النيل كسحابة بيضاء ٠ واكفهر وجهه لحظات ثم انبسطت صفحته رويدا ٠ آخر مشاحنة جرت بينك وبين المرحوم حسن قبل وفاته بشهر ٠ يا حسن بك ٠ أنا الذى يقرر متى يجب تقديم مشروع الميزانية ٠ ولكن ذلك من صميم اختصاصى يا كريم بك ٠ آه ٠٠٠ لا تضطرنى الى سحب العمل من يديك ٠٠ أنت تعرفنى جيداً ٠ اذن اسمح لى أن أحتج على هذه المعاملة فلست أنا بالموظف الصغير ٠ لو امتد به الأجل لكان اليوم منافسك الأول دون منازع ٠ ولكن الجسم الفاسد لا يخلو من دمامل ٠ ها هو على كامل ذو الشرايين المتصلبة ، ماذا يريد ؟ ٠

وقفت السيارة أمام جروبى فغادرها ثم دخل المحل ٠

أجال بصره فى أنحاء المكان حتى رأى الأستاذ على فمضى اليه ثم صافحه بحرارة قائلا :

ـ صباح الخير ، تهانى على مقالتك الأخيرة ٠

ـ أعجبتك حقا ؟

كرر اعجابه وهو يجلس ٠ وطلب قهـــوة وهو يبتســـم ابتسامة ذات معنى فقال الأستاذ :

ـ الظاهر أنك وفقت ٠٠ ؟

دس يده فى جيبه الداخلى فأخرج مظروفا سلمه للأستاذ وهو يقول :

ـ قنبلة العام !

ـ حقا ؟

ـ سوف تنفجر تحت أقدام نسيم البحيرى المأفون المغرور٠

ـ أنت متأكد من صحتها ؟

ـ وثائق لا يرتقى اليها شك ٠

ـ لا أريد أن أعرض الجريدة لقضية خاسرة !

ـ الله يعلم كم كلفنى الحصول عليها من حيلة ومال ٠

ـ ان لم تقض على البحيرى فستقضى على !

ـ ستقضى على البحيرى وحده ٠

تبادلا نظرة طويلة ثم قال كريم :

ـ سيكون نصرا للجريدة !

ـ ولك أنت ٠

ضحك كريم ضحكة أضخم بكثير من جسمه النحيل الدقيق فتمتم الصحفى باسما :

ـ أنت رجل جبار حقا !

ـ أنا رجل مستقيم ونظيف فلا يهمنى أن أرمى بعد ذلك بالقسوة ٠

وقرأ فى عينى الصحفى نظرة لم يفهمها تماما فقال :



دس يده فى جيبه الداخلى فأخرج مظروفا سلمه للأستاذ

ـ انت أيضا تكرهه ٠

ـ سأنشر الوثائق للمصلحة العامة ولا دخل لعواطفى فى ذلك ٠

ـ حسن وأنا أخدم المصلحة العامة بطريقتى كذلك ٠

وقام مادا له يده فصافحه وهو يسأله عن صحة ابنه فقال وهو يمضى عنه :

ـ لا بأس به ولكن الحرارة ما زالت مرتفعة ، شكرا لسؤالك عنه ٠٠

استقل سيارته الى مكتب الأستاذ يوسف عبد الرحمن المحامى الذى استقبله بترحاب وهو يقول :

ـ مبارك يا كريم بك ، قرأت اسمك أمس بين المرشحين ٠

ـ شكرا يا عزيزى ، خبرنى عن جلسة أمس ٠

ـ تأجيل لتقديم مذكرات ٠

ـ وماذا عن مركزنا ؟

ـ عال جدا ، أنا مطمئن كل الاطمئنان ٠

ـ اذن سيركع فهيم الدسوقى ؟

ـ أجل ، ولكن ثمة جديد ٠

ـ ما هو ؟

قال المحامى بصوت أخفض درجة :

ـ تلويح بالصلح !

ـ صلح !!

لفظها كذبابة فقال المحامى :

ـ سوف تحترم شروطك بطبيعة الحال ٠

ـ ولو !

ـ وهو على أى حال ابن عمك ٠

ـ هذا مبرر للعداوة ٠

ـ أهذا هو رأيك الأخير ؟

ـ حتى النهاية ٠
وذهب الى مكتبه بالوزارة ثم طلب فى التليفون رقما ٠
ـ آلو ٠٠ على ؟ ٠٠ صباح الخير ٠
ـ ٠٠٠٠
ـ عندى لك خبر مهم جدا ٠٠
ـ ٠٠٠٠
ـ اقرأ غدا صحيفة الكوكب ٠
ـ ٠٠٠٠
ـ نسيم البحيرى قضى عليه الى الأبد ٠

وضحك طويلا حتى ارتجت لضحكه أركان الحجرة الكبيرة الصامتة ٠ واستقبل مدير مكتبه الذى عرض عليه البريد وبعض الموضوعات العاجلة ٠ وجاء على أثره على كامل فتبادلا الآراء فى مسائل شتى ووجهاهما يعكسان برودا سافرا ٠ وعندما وقف على كامل استعدادا للذهاب سأله كريم بدافع شيطانى مباغت :

ـ كيف الصحة ؟

فأجاب الآخر فيما يشبه التحدى :

ـ لم تكن شراييني فى وقت من الأوقات خيرا مما هى الآن ٠

عنيد مكابر كذاب ٠ وجهك الشاحب المتغضن يفضحك ٠ وعما قليل ستعتذر عن تخلفك الاضطرارى عن اجتماعات المساء ٠ على كامل ، البحيرى ، الدسوقى ، وعشرات غيرهم ٠ كائنات نخرها السوس فلم يبق منها الا على عناد وحقد ٠ انت بحاجة الى مدفع سريع الطلقات لتطهر منهم الحياة ٠ وسوف تنتصر كما انتصرت دواما ٠ حياتك سلسلة من المعارك متوجة بالانتصار ٠ فى ذلك متعتك وكرامتك فى الحكومة أو النادى أو القرية ٠ منذ نشأتك الأولى وأنت مناضل كأنك تعيش

فى حلبة ملاكمة · النضال هو روح الحياة وسرها أما القيم المعسولة الخرعة فهى آفات الحياة · والرجال يضمرون لك اعجابا لا حد له وان رددت ألسنتهم خلاف ذلك فعن خوف أو حسد · حتى الوزير نفسه استدعاه يوما وقال له :

ـ يا سيد كريم لماذا تثير الزوابع دائما ؟

فتساءل بأدب واعتزاز معا :

ـ سيدى الوزير هل أنا رجل صالح للعمل ؟

ـ لم أطعن فى ذلك أبدا ·

ـ ونظافتى ؟

ـ على خير ما يرجى ·

ـ وعند الخلاف مع الآخرين أين تجد سيادتكم الحق ؟

ـ ولكنك تغالى فى العنف حتى لينقلب الوضع فكأن الحق مع خصمك ·

ـ هكذا خلقنى الله !

فقال الرجل بنبرة لم تخل من ضجر :

ـ حتى العنف فى الحق يجب أن يقف عند حد ·

وعند الظهر رأس اللجنة المالية · وتفانى فى العمل كعادته فلم يبال بالوقت · ومرت ساعتان عقب وقت الغداء وهو يختلس من حين لآخر النظر الى الوجوه المتعبة المتألمة ، ويتربص بكلمة تذمر أو شكوى · وفى صدره لعبت عواطف ماكرة كشقاوة الأطفال · ولما أشبع طاقته فى العمل والتعذيب فض الجلسة · واتصل بزوجته بالتليفون فسألها عن الولد :

ـ لا بأس به ولكنى استدعيت الطبيب لأن الحرارة لا تريد أن تنخفض ·

ـ بخير ان شاء الله لن أعود قبل العاشرة مساء بسبب العمل !

وفكر فى مسألة مرض الأطفال وهو يتناول غداءه

بالنادى · قال ان الأطفـال ما كان يجب أن يمرضـوا على الاطلاق · المرض ـ اذا لم يكن منه بد ـ فهو ظاهرة تطرأ على الجهاز البشرى عقب طعونه فى السن أما الطفل فلا يمرض الا لخلل فى الكون · وقد كان ـ هو ـ سـليما عند الزواج كما كانت كذلك درية زوجته ، وولد رمزى آية فى الصحة والجمال فما معنى المرض اذن ؟

ومضى الى حجرة التليفون فانبسطت أساريره لأول مرة ، لأول مرة سرت ابتسامة فى غضون الوجه الصارم الكالح :

ـ آلو ·· هنومة ؟ ·· كيف الحال ؟

ـ ····

ـ عال ، هذا يعنى أنه لن يعود اليوم ؟

ـ ····

ـ اذن نتقابل فى السابعة ؟

ـ ····

ـ اعملى حسابك على سـاعتين على الأقل ، الى اللقاء يا محبوبة !

واستقل السيارة وهو يقول للسـائق « بار الأنجلو » · سيمكث هنالك ساعة ثم يمضى الى هنومة · امرأة مثالية فى غرامياتها · وزوجها البدين يتوهم أن البدانة يمكن أن تجعل من رجل زوجا موفقا · وهو يجىء الى بار الأنجلو فينهمك فى لعب الطاولة مقامرا بمبالغ ضخمة ، ومرة قاوم اغراء غريبا بصفعه على قفاه · أما البحيرى فموعده الغد · سوف يصعق عند مطالعة الجريدة واذا انتحر فسيثبت بانتحاره أن سـوء ظنه به لم يكن صوابا على طول الخط · واضطر السائق الى ركن السـيارة فى آخر الطريق عند أول موضـع خال فغـادر السيارة ليتم طريقه مشيا على الأقدام · سـار فوق الطوار بجسمه النحيل الدقيق يطالع الدنيا بوجه صارم شبه متقزز ·

ومر بمحل لبيع التحف اليابانية فدخله دون سابق تفكير لابتياع هدية لهنومة • اختار شبشبا مناسبا تماما للاستعمال في مسكنهما السري بالهرم • وواصل مسيره نحو البار • وعند أول منعطف قبل القبى ، وعقب نزوله من الطوار مباشرة ، وجد نفسه مدفوعا نحو غلام يبول فتراجع بسرعة هاتفا « يا ولد يا كلب » • كان الغلام يبول في علانية استعراضية ، وشقاوة وشدت بسرور بدا يفعل • وقد انطلق البول متلألئا تحت أشعة الشمس في هيئة قوس والغلام يدفعه بحركاته الذاتية الى أقصى مدى يستطيعه • تراجع كريم بك في شبه فزع فزلت قدمه فهوى على ظهره فارتطم مؤخر رأسه بحافة الطوار • ذعر الغلام فولى هاربا • ووقف المارة القريبون ليشاهدوا الحدث الغريب وهم بين الرثاء والابتسام ولكن كريم بك استلقى في اغماء لا شك فيه • وهرع اليه بعض ذوى النجدة ليسعفوه • وارتفع من بينهم صوت هاتفا :

ـ يا لطف الله ••• الرجل جثة هامدة !

الفهـــرست

صفحة

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

الطبعة الأولى

مصر القديمة	(مترجم عن الانجليزية)	١٩٣٢		
همس الجنون	(مجموعة أقاصيص)	١٩٣٨	الطبعة التاسعة	١٩٧٨
عبث الأقدار	(قصة تاريخية)	١٩٣٩	» »	١٩٧٨
رادوبيس	(» »)	١٩٤٣	» »	١٩٧٨
كفاح طيبة	(» »)	١٩٤٥	» العاشرة	١٩٧٦
القاهرة الجديدة		١٩٤٥	» »	١٩٧٦
خان الخليلي		١٩٤٦	» التاسعة	١٩٧٦
زقاق المدق		١٩٤٧	» الثامنة	١٩٧٨
السراب		١٩٤٨	» »	١٩٧٦
بداية ونهاية		١٩٤٩	» العاشرة	١٩٧٦
بين القصرين		١٩٥٦	» التاسعة	١٩٧٢
قصر الشوق		١٩٥٧	» الثامنة	١٩٧١
السكرية		١٩٥٧	» السابعة	١٩٧٦
اللص والكلاب		١٩٦١	» الثامنة	١٩٧٨
السمان والخريف		١٩٦٢	» السادسة	١٩٧٨
دنيا الله	(قصص قصيرة)	١٩٦٣	» الرابعة	١٩٧٨
الطريق	(رواية)	١٩٦٤	» الخامسة	١٩٧٨
بيت سيء السمعة	(قصص قصيرة)	١٩٦٥	» الخامسة	١٩٧٨
الشحاذ	(رواية)	١٩٦٥	» السادسة	١٩٧٨
ثرثرة فوق النيل	(رواية)	١٩٦٦	» الرابعة	١٩٧٧
ميرامار	(رواية)	١٩٦٧	» »	١٩٧٦
خمارة القط الأسود	(قصص قصيرة)	١٩٦٩	» »	١٩٧٧
تحت المظلة	(قصص قصيرة)	١٩٦٩	» »	١٩٧٨
حكاية بلا بداية ولا نهاية	(قصص قصيرة)	١٩٧١	» »	١٩٧٨

الطبعة الأولى

شهر العسل	(قصص قصيرة)	١٩٧١	»	الخامسة	١٩٧٨
المرايا	(رواية)	١٩٧٢	»	الثالثة	١٩٧٨
الحب تحت المطر	(رواية)	١٩٧٣	»	»	١٩٧٨
الجريمة	(قصص قصيرة)	١٩٧٣	»	»	١٩٧٨
حكايات حارتنا	(شخصيات ومواقف)	١٩٧٥	»	الثانية	١٩٧٨
قلب الليل	(رواية)	١٩٧	»	»	١٩٧٨
حضرة المحترم	(رواية)	١٩٧٥	»	الثالثة	١٩٧٨
الكرنك	(رواية)	١٩٧٤	»	»	١٩٧٨
الحرافيش	(رواية)	١٩٧٨			

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه
٣٧ شارع كامل صدق - الفجالة
ت ٩٠٥١٤٧ - ٩٠٧٥٩٣

رقم الايداع ٥١٦٢ / ١٩٧٨
الترقيم الدولى ٠ ـ ٣١٨ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٥٠ قرشا